شرح

أصول في التفسير

لسماحة الشيخ العلامة الفقيه

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى

شرح فضيلة الشيخ الدكتور

سعد بن ناصر الشثري

حفظه الله

إعنته به وفرغته :

أبو عبد الأعلى حاتم فتح الله المغربي

...

وبعد :

فإن المؤمن يعلم أن الله جل وعلا قد أنعم على البشر قاطبة نعمة عظيمة بإنزال هذا الكتاب ، القرآن الكريم الذي اشتمل على كل ما ينفع الناس وما تحصل به مصالحهم ، فإن هذه الشريعة المباركة جلبت الخير والمصلحة للناس

جميعا ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وهذا الكتاب شامل عام، ما من قضية إلا وفي كتاب الله بيان المنهج الحق فيها وتعريف بالصواب فيها قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩).

وهذا الكتاب هو كلام رب العزة والجلال العارف بأحوال الناس ، ومن هنا فهذا الكتاب رباني لا يقبل تعديلا ولا يقبل تغييرا ولا تحريفا ، بل إن الله جل وعلا بفضلته قد حماه من أن تناله أيدي العابثين كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

ثم هذا الكتاب الوارد من رب العزة والجلال هو كلام الله، تكلم به حقيقة على ما سيأتي في مباحثه، وهو كتاب مبارك تحصل البركة بقراءته وبتدبر معانيه وبالعامل به وبحفظه قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ ص: ٢٩ ،

وقال: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٥).

وهذا الكتاب يحصل لأصحابه المجد والمكانة العالية كما قال جل وعلا :

﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ۝١ ﴾ ق: ١ ، وهذا الكتاب له تأثير على النفوس متى

تمعنت فيه ، فهو يغير حال العبد من طريقة إلى طريقة ، يغيرها من حال الضلالة وحال المعصية وحال السوء والشر إلى حال الهداية والخير والاستقامة .

فإذا كان هذا الكتاب يؤثر على الصخر فكيف لا يؤثر في القلوب قال

تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۝٢١ ﴾ الحشر: ٢١ .

وكم وجدنا للقرآن من تأثير في النفوس عند حضور القلوب واستماع الآذان

وتفكر العقول في آيات هذا الكتاب قال تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا

وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ ﴾ التوبة: ١٢٤ .

وهذا الكتاب فيه الهداية والرحمة كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا

لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩ ﴾ النحل: ٨٩ .

وهذا الكتاب من خاصيته أنه مصدق بالكتب السابقة جميعا ، الكتب

السماوية التي أنزلت على الأنبياء السابقين ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۝٤٨ ﴾ المائدة: ٤٨ ، ومن هنا فهذا الكتاب ناسخ

لما قبله من الكتب والشرائع .

ومن خاصية هذا الكتاب أنه عربي اللسان، واللغة العربية واسعة وألفاظها

كثيرة ومعانيها متعددة، ولها أساليب لا يجدها الإنسان في لغات الناس، وكما

قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ يوسف: ٢ .

ومن هنا حسن بنا أن نتوجه إلى هذا الكتاب العظيم لتدبر معانيه وأخذ العظة والعبرة منه فإن الله قد دعانا لذلك فقال سبحانه : ﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَتَّبِعُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ص: ٢٩ ، وكما قال جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد: ٢٤ ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء: ٨٢ .

وهذا الكتاب له مميزات عديدة تجعلنا نطالعه ونتدبر المعاني العظيمة التي اشتمل عليها هذا الكتاب ، ومن هنا حرص علماء الشريعة على تعريف الناس بمعاني كتاب الله عزوجل فألفت المؤلفات العديدة في تفسير القرآن من القرون الأولى ولا زال الناس يؤلفون مؤلفات في تفسير القرآن تغترف شيئا من معاني هذا الكتاب وتوضحها ولا زال فيه معاني جديدة لم ينبه إليها مما يدل على حاجة هذا الكتاب إلى الجهود التي تفسره وتوضح معناه .

وقد حرص علماء الشريعة على وضع قواعد لتفسير كتاب الله جل وعلا يسير المفسرون عليها ليكون تفسير كتاب الله منضبطا بأصول وقواعد صحيحة توصل إلى مراد الله عزوجل ، فإن من أشنع ما يكون أن يفسر المرء كلام الله بغير مراد الله فإن هذا من القول على الله بلا علم وقد عاب الله على الذين يكذبون عليه فقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ الأنعام: ٢١ أي لا يوجد أحد أظلم ممن كذب على الله ومن أنواع الكذب على الله تفسير كلامه بغير مراد الله ، قال تعالى : ﴿ وَيَلِكُم لَاتَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم

بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى ﴿٦١﴾ طه: ٦١ ، وقال جل وعلا : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي
الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ
وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ البقرة: ١٦٨ - ١٦٩ .

وقد حرص علماء الشريعة على كتابة قواعد التفسير ، وكانوا في الأزمنة الأولى يكتبون بما يذكر في علم الأصول ، فإن علم الأصول قد اشتمل على قواعد عديدة يتمكن المفسر بها من تفسير كلام الله عزوجل ؛ فهناك قواعد متعلقة بكيفية التفسير وأنواع القراءات وحكم كل منها ، وبيان المحكم من المتشابه وبيان الناسخ من المنسوخ وفيها أيضا قواعد متعلقة بدلالات الألفاظ كالأمر والنهي وأنواع الكلام والإطلاق والتقييد والإجمال والبيان وأنواع المفاهيم والدلالات من مثل : دلالة الإشارة ودلالة التنبيه ودلالة الاقتضاء ، ومفاهيم الموافقة والمخالفة والصفة والشرط والعدد إلى غير ذلك من أنواع القواعد الأصولية التي يمكن استثمارها في تفسير كلام الله عزوجل .
و دراسة هذه القواعد لها ثمرات عظيمة يحصلها الإنسان، ما هي الثمرات التي تجنيها من دراسة أصول التفسير ؟
هناك ثمرات كثيرة منها :

* تمكن الإنسان من فهم كلام الله عزوجل على مراده ، فعندما نتأمل ونتدبر القرآن على مقتضى هذه القواعد نكون قد فهمنا القرآن فهما صحيحا ، وأما إذا كان الإنسان ينظر إلى الآيات القرآنية بدون أن يكون

عنده قواعد فإنه سيتزل كلام الله على غير مراده .

* و الفائدة الثانية: أن يكون عندنا القدرة على الحكم على تفاسير العلماء صحة وضعفا، فنعرف هل هذا التفسير لكتاب الله ولكلام الله تفسير صحيح أو فيه ما فيه.

* والأمر الثالث : أن يكون لدى المرء بدراسة أصول التفسير القدرة على الترجيح بين أقوال المفسرين ، فإن المفسرين اختلفوا في تفسير كلام الله ، وقد يكون اختلافهم من اختلاف التنوع فيكون الجميع صحيحا ، وقد يكون اختلافهم من اختلاف التضاد فحينئذ أحد الأقوال هو الصحيح وما عداه فإنه باطل .

وكيف يتمكن الإنسان من الترجيح بين أقوالهم ؟ بواسطة هذه القواعد والأصول التي ندرسها في هذا العلم.

و لعنا نقرأ مقدمة المؤلف رحمه الله تعالى في هذا اليوم ونكتفي بقراءة المقدمة، نعم.

أصول في التفسير

لسماحة الشيخ العلامة الفقيه

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله تعالى

وأستغنى الله الفرووس الأعلى

المقدمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلي الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً ، أما بعد :

فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عوناً له على فهمه وتخرجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنياً على أسس قوية ودعائم راسخةً ، وقد قيل : من حُرِّم الأصول حرم الوصول.

ومن أجل فنون العلم ، بل هو أجلها وأشرفها ، علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل وقد وضع أهل العلم له أصولاً ، كما وضعوا العلم الحديث أصولاً ، ولعلم الفقه أصولاً .

وقد كنت كتبت من هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أفرد لها في رسالة، ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبتته إلى ذلك.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بها.

ويتلخص ذلك فيما يأتي :

* القرآن الكريم :

1- متى نزل القرآن على النبي صلي الله عليه وسلم، ومن نزل به عليه من

الملائكة ؟

2- أول ما نزل من القرآن.

3- نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.

4- القرآن مكّي ومدني، وبيان الحكمة من نزوله مفروقاً. وترتيب القرآن.

5- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي صلي الله عليه وسلم .

6- جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

التفسير :

1- معني التفسير لغة واصطلاحاً ، وبيان حكمه ، والغرض منه .

2- الواجب على المسلم في تفسير القرآن .

3- المرجع في التفسير إلى ما يأتي :

أ- كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن .

ب- سنة الرسول صلي الله عليه وسلم ؛ لأنه مبلغ عن الله تعالى ، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله .

ج. كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير ، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم .

د. كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم .

هـ . ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق ، فإن اختلف الشرعي واللغوي ، أخذ بالمعني الشرعي بدليل يرجح اللغوي .

4- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور .

5- ترجمة القرآن : تعريفها - أنواعها - حكم كل نوع .

*- خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير ثلاث للصحابة واثنان للتابعين .

* أقسام القرآن من حيث الأحكام من المشابه .

موقف الراسخين في العلم، والزائعين من المشابه.

التشابه: حقيقي ونسبي .

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه .

* - موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك .

القَسَم:

تعريفه - أدواته - فائدته

* القصص:

تعريفها - الغرض منها - الحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقصر

والأسلوب .

* الإسرائيليات التي أقحمت في التفسير وموقف العلماء منها .

* الضمير:

تعريفه - مرجعه - الإظهار موضع الإضمار وفائدته - الالتفات وفائدته -
ضمير الفصل وفائدته.

شرح المقدمة

بدأ المؤلف رحمه الله هذا الكتاب بالبسملة اقتداء بكتاب رب العزة والجلال فإنه مبدوء بالبسملة ، وسيرا على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله وكتبه التي كتبها إلى أهل زمانه ، فقد كان يتدئها بهذا اللفظ بسم الله الرحمن الرحيم (1) .

وفي صلح الحديبية أمر الكاتب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال أهل مكة : لا نعرفه هذا، قل : باسمك اللهم . فكتبها النبي صلى الله عليه وسلم رغبة في إجراء هذا الصلح لما يترتب عليه من مصالح شرعية (2) .

وبسم الله جار ومجرور ، الباء حرف جر واسم مجرور ، والجار والمجرور يتعلق بمحذوف سواء كان فعلا أو اسما تقديره ابتدئ أو أستعين أو أتوكل أو نحو ذلك .

والذي يظهر أن حذف الفعل من أجل تعميم ذلك الفعل ، عندما يكون هناك كلام محذوف في الجملة فإن المراد به تعميم المعنى ليشمل جميع الأفعال

(1) - كما في رسالته صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم التي أخرجه البخاري : كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة - حديث: 2803 .

(2) - وأخرج قصة الصلح البخاري : كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط - حديث: 2601 ، ومسلم : كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية - حديث: 3424 .

الصالحة لذلك ، وهذه يسمونها عند الأصوليين دلالة الاقتضاء ؛ أن يكون في الكلام محذوف نحتاج إلى تقديره ، فحينئذ الراجح من أقوال الأصوليين أننا نعممه وذلك لأنه لم يحدث الفعل أو الاسم إلا لمصلحة ألا وهي تعميم الكلام ليشمل جميع المعاني .

والله عَلَّمَ على الذات الإلهية رب العزة والجلال ، وهو مما يختص به سبحانه ولا يجوز أن يسمى به أحد سواه ، ومثله أيضا الرحمن فإن الصواب أن هذا الاسم مما يختص به رب العزة والجلال ولا يجوز أن يسمى به أحد سواه ولذلك ورد في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : [خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن] (3) لأنها أسماء معبدة لأسماء الله عز وجل يختص بها لا يسمى بها أحد سواه جل وعلا .

والرحمن والرحيم : اسمان مشتقان من الرحمة ، الرحمن على وزن فعلان الدال على الامتلاء والمبالغة ، وصفة الرحمة ثابتة لرب العزة والجلال فإنه جل وعلا يرحم العباد ، وقد ثبت أنه جل وعلا يرحم في الدنيا جميع الخلق ، وقد قيل إن الرحمن تشمل رحمة الدنيا ورحمة الآخرة لأنها للمؤمنين ولغيرهم . وأما الرحيم فإنها تختص بالآخرة لأهل الإيمان واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٤٣) الأحزاب : ٤٣ ، والأظهر تعميم هذين

(3) - أخرجه الإمام أحمد : مسند الشاميين ، حديث خيشمة بن عبد الرحمن - حديث : 17295 ، وصححه

العلامة الألباني في صحيح الجامع : 3269 .

اللفظين للدنيا والآخرة .

والتأكيد على صفة الرحمة من أجل معرفة أن الله جل وعلا لن يترك العباد هملاً بل سيجعل لهم شرائع يسيرون عليها فتستقيم بها أحوالهم دنيا وآخرة ، ومن أجل التنبيه على أن رب العزة والجلال يرحم من يشاء من عباده بهدايته إلى الطريق المستقيم ، فينبغي بالعقلاء أن يحرصوا على الأسباب الجالبة لرحمة الله .

وقوله : الحمد لله الأظهر أن {ال} هنا ليست للاستغراق وإنما المراد بها الحمد الكامل الذي لا يأتيه نقص بطريق من الطرق ، والمراد بالحمد الوصف بالجميل الاختباري ؛ فإذا وصفت غيرك بأوصاف اختيارية جميلة فإن هذا يسمى حمدا سواء كان لله أو لغيره ، لكن الحمد الموجه لغير الله لا يكون كاملا من جميع الوجوه وإنما يعتريه النقص من بعض الوجوه ، وأما الحمد الموجه لله عزوجل فهو حمد كامل ، لأن صفات الله كاملة فيكون حمده كذلك .

وقوله : الحمد لله أي الحمد الكامل ثابت لله وحده لأن المبتدئ المعرف ينحصر في الخبر .

وقوله : نحمده أي نتوجه بالشاء والوصف الجميل له جل وعلا .
ونستعينه : أي نطلب العون منه ، والعون المدد والقوة التي تكون سببا للاستجلاب الإنسان أنواع المصالح التي يستفيد منها في دنياه وآخرته .

والأصل أن المؤمن لا يستعين إلا بالله فيما لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥ ، لكن ما يقدر عليه العباد يجوز أن يستعان بهم وإن كان الأولى ألا يطلب الإنسان غيره ولا يسأله في أموره الخاصة ، وأما الأمور التي تعود بالنفع على الغير أو تكون سببا من أسباب جلب الخير للمستعان به فلا بأس بذلك ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعين بأصحابه فيما يعود بالنفع عليهم ، فاستعان بهم في قتال واستعان بهم في أمرٍ معروف واستعان بهم في نصيحة الخلق ، واستعان بهم في الدعوة إلى الله إلى غير ذلك .

وقوله : ونستغفره : أي نطلب منه جل وعلا مغفرة الذنوب بسترها وعدم إظهارها والستر إما أن يكون بإزالتها بعفو الله جل وعلا وتجاوزه أو بعدم وجود آثارها ، لأن المعصية لها آثار على العباد في تصوراتهم وفي أرزاقهم وفي أخلاقهم وفي سائر أمورهم .

قوله : ونتوب إليه أي نرجع إليه جل وعلا ونكون على الطريقة الأولى ، وبهذا نعرف الفرق بين المغفرة والتوبة ؛ فإن المغفرة ستر للذنوب وإبعاد لآثاره عن العبد ، بينما التوبة رجوع إلى الله ورجوع إلى الطريقة الأولى التي يتعد فيها الإنسان عن معصية الله جل وعلا .

وقوله : ونعوذ بالله من شرور أنفسنا أي نلتجئ ونختمي به سبحانه من شرور النفس ، والشرور هي الغوائل والآثار السيئة للنفس سواء كان في

اعتقاداتها أو في أعمالها ، لأن الناس لا يصابون بالشروع إلا من قبل أنفسهم
 كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ الشورى: ٣٠ ،
 وكما قال جل وعلا: ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُمْصِبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ
 عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ آل عمران: ١٦٥ ، وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ
 فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ النساء: ٧٩ .

قال: ومن سيئات أعمالنا: الأول متعلق بصفات النفس شرور النفس، والثاني
 سيئات الأعمال وهي متعلقة بالجوارح، وسيئات الأعمال أي الأعمال
 المخالفة لشرع الله ودينه.

قوله من يهده الله فلا مضل له : المراد أن من يوفقه الله لسلوك الطريق
 المستقيم فلن يتمكن أحد من إبعاده عن ذلك، وهذه هداية الإلهام والتوفيق
 وليست هداية الدلالة والإرشاد.

قوله: ومن يضل فلا هادي له : أي من أبعده الله عن الطريق المستقيم وقدر
 عليه ذلك فلن يتمكن أحد من هدايته.

فإن قال قائل: هل يأخذ من هذا ترك الدعوة إلى الله ؟

نقول: الدعوة إلى الله يستفيد منها الداعي، ومن هنا فإن الداعي يدعو سواء
 كان الناس سيستجيبون له أو لا، ثم إن أمر الهداية والضلال من الأمور الغيبية
 التي لا يُطلع عليها، هل فلان سيهديه الله أو سيضله ؟ هذه أمور غيبية، ومن

ثم فأنت تبذل ما عليك لتستفيد الأجر وأما ما يتعلق بغيرك فأمره إلى الله.
 قوله: **وأشهد أن لا إله إلا الله** : أي أقر واعترف بهذه الشهادة، سُميت
 شهادة لأن المتكلم بما يُوقن بها ويجزم بها كأنه يشاهدها وينظر إليها.
 وقوله **أن لا إله إلا الله** : أي لا معبود بحق إلا الله ، ففيها نفي وإثبات
 ومعناها : أنني أقر واعترف بأن العبودية حق خالص لله ، ومن ثمَّ فإنني لا
 أعبد أحدا سوى الله وحده - فغير الله لا يجوز صرف شيء من العبادات له
 - لا شريك له ، وهذا هو أساس دعوات الأنبياء فكل نبي يدعو قومه
 يقول: ﴿ **الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** ٢ هود: ٢ ، ﴿ **أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ** المائدة: ١١٧ ، قال تعالى: ﴿
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ النحل: ٣٦ ، وقال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ**
قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ الأنبياء: ٢٥ .
 وقوله: **وأشهد أن محمدا عبده ورسوله** أي أن محمد بن عبد الله العربي
 القرشي أرسله الله إلى الناس ليكون دالا إلى طريق شريعة الله ومنجيا لهم بإذن
 الله من عقوبة الله دنيا وآخرة.

وقوله: **عبده** أي أن هذا النبي الكريم عبد من عباد الله فليس ابنا لله ولهذا
 وصف الله هذا النبي بصفة العبودية في المواطن الشريفة قال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ**
الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴿الإسراء: ١ فقال بعبده. وقال جل وعلا: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى**
عَبْدِهِ ﴿الحديد: ٩ ، فهذه المواطن الشريفة يوصف فيها هذا النبي الكريم

بالعبودية .

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه : الصلاة المراد بها الثناء على الصحيح من أقوال أهل العلم ، فإننا نطلب من الله أن يثني على هذا النبي الكريم . وقد وردت النصوص بالترغيب في الصلاة على هذا النبي الكريم قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ الأحزاب: ٥٦ ، وقال صلى الله عليه وسلم : [من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا] (4) وقال : [البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي] (5) .

قال: أما بعد: أي مهما يكن من شيء بعد فإن من المهم، وأما يؤتى بها للتفريع والانتقال.

وقوله: فإن من المهم في كل فن تعلم المرء لأصول العلم الذي يريد أن يتعلمه ليكون عوناً له على فهمه: أصول العلوم هي أساسها الذي تنطلق منه، والأصول يستفاد منها فائدتان:

(4) - أخرجه مسلم : كتاب الصلاة ، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه - حديث: 603

(5) - أخرجه الترمذي : الذبائح، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث: 3551 ، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع : 2878 .

– الفائدة الأولى القدرة على التفريع : فإن من عرف شيئاً الفروع فلا يتمكن من تفريع فروع أخرى بخلاف من عرف الأصول فإنه يتمكن من التفريع عليها.

– والأمر الثاني أن من عرف الأصول أحاط بالعلم في الغالب ، أما من ذهب يدرس الجزئيات والفروع فإنه لن يحيط بالعلم ، وإنما يحيط به إذا عرف أصوله وقواعده .

– ومن فوائده أيضا : فهم العلم ومعرفة صحيحه من سقيمه ، لأن العلوم قد يتكلم فيها المتكلمون باجتهاداتهم ، والاجتهاد قد يقع فيه الصواب وقد يقع فيه الخطأ ، فإذا عرفنا الأصول ميزنا بين الصواب والخطأ ، وبذلك يكون معرفة المرء لهذا العلم مبنياً على أسس قوية ودعائم راسخة .

ثم ذكر ما يتعلق بالتفسير فقال: أجل العلوم وأشرفها علم التفسير ، المراد بالتفسير توضيح معاني كلام الله في كتابه ، وهذا العلم شرفه مُستمد من أصله ؛ فإن كلام الله أعلى الكلام وأرفعه ، ورفعته مستمد من شرف المتكلم به ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على من سواه .

قال : وقد وضع أهل العلم لهذا العلم أصولاً : سيأتي إن شاء الله تفصيل شيء من هذه الأصول .

ويبين المؤلف أن سبب تأليفه لهذا الكتاب أنه من المناهج المقررة في المعاهد

العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفي هذا الحرص على تسهيل العلوم وتيسيرها عند الطلبة.

ثم ذكر المؤلف أقسام هذه الرسالة، وهذه الرسالة لم تشتمل على جميع هذا العلم وإنما أوردت نماذج منه، من أجل وضع لبنة من لبنات هذا العلم في أذهان المتلقين والدارسين.

ومؤلف هذا الكتاب معلوم عندكم هو فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ولد في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف ، وتوفي عام إحدى وعشرين وأربعمائة وألف ، وهو من العلماء المجتهدين الذين اهتموا بتدريس العلوم فنفخ الله بعلمهم كثيرا ، وبارك الله في علمه حتى وصل علمه إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ومن فضل الله عزوجل أنه كان على عقيدة سلفية مبنية على أسس صحيحة من كتاب الله وسنة رسوله **صلى الله عليه وسلم** ، وكان **رحمه الله** متفنا في علوم كثيرة ، ووصل إلى رتبة الاجتهاد في كثير من هذه العلوم ، وما هذه الرسالة إلا نموذج من نماذج مؤلفاته التي نفع الله بها الأمة ، ولا زال علمه محل درس ومحل عناية من أهل العلم ، ولعلنا إن شاء الله نتكلم عن هذه جزئيات هذه الرسالة في درسنا القادم .

نسأل الله جل وعلا أن يوفقنا وإياكم لخيري الدنيا والآخرة وأن يجعلنا

وإياكم من الهداة المهتدين وأن يرزقنا وإياكم فهم كتابه والعمل به واتباع
هدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

القرآن الكريم

القرآن في اللغة : مصدر قرأ بمعنى تلا ، أو بمعنى جمع ، تقول قرأ قرأً وقرآناً ، كما تقول : غفر غَفْرًا وَّغَفْرَانًا ، فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول ؛ أي بمعنى متلوّ، وعلى المعنى الثاني: (جَمَعَ) يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل ؛ أي بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام . (1)

والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد صلي الله عليه وسلم، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٣ ، وقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢ .

وقد حمى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل ، حيث تكفل عز وجل بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩ ، ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغير فيه ، أو يزيد ، أو ينقص ، أو يبدل ، إلا هتك الله ستره ، وفضح أمره .

(1) ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول أيضاً ، أي بمعنى مجموع ؛ لأنه يُجمع في المصاحف والصدور.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموه، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الحجر: ٨٧ ،
 ﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ ق: ١ . وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩ ، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٥٥ ، ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ الواقعة: ٧٧ ،
 ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ الإسراء: ٩ .

وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشر: ٢١ ،
 وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ التوبة: ١٢٤ - ١٢٥ ، ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَاكُمْ لَتَشْهَدُنَّ أَنَّ مَعَ اللَّهِ الْهَةَ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأنعام: ١٩ . وقال تعالى:
 ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

النحل: ٨٩ ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ المائدة: ٤٨ .

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بعث بها محمد صلي الله عليه وسلم إلى كافة الناس، قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ الفرقان: ١، ﴿ الرَّكِيَّتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ ﴾ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ﴾ إبراهيم: ١ - ٢ .

وسنة النبي صلي الله عليه وسلم مصدر تشريع أيضاً كما قرره القرآن، قال الله تعالى ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ ﴾ النساء: ٨٠، ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝٣٦ ﴾ الأحزاب: ٣٦، ﴿ وَمَاءِ أَنْتُمْ الرَّسُولُ فَاخْذُوهُ وَمَانِهَكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧ ﴾ الحشر: ٧، ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١ ﴾ آل عمران: ٣١ .

شرح مبحث: القرآن الكريم

لما كانت هذه الأصول متعلقة بتفسير كتاب الله جل وعلا القرآن الكريم، احتاج لتقديم مقدمة في تعريف القرآن، وفي بيان خصائصه ومميزاته. وأما من جهة التعريف فقد ذكر المؤلف أنه يعرف القرآن من جهة اللغة بأن القرآن مصدر للفعل قرأ، وقرأ قد تكون بمعنى تلا وحينئذ يكون القرآن هو المَتْلُو، فيكون اسم مفعول وذلك أن الناس يتلون هذا القرآن ويقرؤونه. والمعنى الثاني لفعل قرأ أن تكون بمعنى جمع، ومن هنا قيل: القرء لحصول الاجتماع فيه، وعلى هذا المعنى يكون القرآن اسم فاعل بمعنى أن القرآن جامع لكونه يجمع الحِكَم والأحكام والمعاني والأخبار.

ثم تكلم عن تعريف القرآن في الشرع، وقبل أن ندخل في هذا الباب نبين مذاهب الناس في القرآن، فإن الناس فيه على مذاهب متعددة أشهرها ثلاثة:

1- أولها: أن القرآن هو المعاني النفسية القائمة بالله جل وعلا ، وهذا الذي بين أيدينا عبارة عن القرآن أو حكاية عنه ، وليس هو ذات القرآن ، وهذا قول الكرامية (6) والأشاعرة (7) ومن نحى نحوهم .

- (6)

- (7)

وهذا القول قول باطل وذلك أن الله جل وعلا قد أخبر أن هذا المسموع هو بذاته القرآن ، وأن القرآن هو الذي أنزل على هذا النبي الكريم قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ (الحجر: ٨٧) ، ما قال : آتيناك ما هو عبارة عن القرآن .

وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ (الإسراء: ٩) ، وقال: ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ** ﴾ (الحشر: ٢١) ، فدل هذا على أن المتزل هو ذاته القرآن ، وقال سبحانه في حكاية قول الجن: ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى** ﴾ (الأحقاف: ٣٠) ، مع ذكرهم أن هذا الكتاب هو القرآن فدل هذا على أن المتزل هو ذاته القرآن ، وأن من قال : إن الذي بين أيدينا عبارة عن القرآن أو حكاية عنه فقولُه باطل .

2- والقول الثاني يقول : بأن هذا القرآن هو الذي بين أيدينا لأن القرآن هو الذي بين أيدينا ، لكن القرآن لم يتكلم به رب العزة والجلال ، وهذا القول أيضا قول باطل ؛ فإن الله جل وعلا قد أخبر أن هذا المسموع هو بعينه كلام الله كما قال سبحانه: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ** ﴾ (التوبة: ٦) ، وقال سبحانه: ﴿ **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة: ٧٥) .

3- والقول الثالث هو ما حكاه المؤلف هنا أن هذا الذي بين أيدينا هو

القرآن، وهو كلام الله حقيقة تكلم به وهو صفة من صفاته جل وعلا ، وهذا القول هو الذي تظاهرت الأدلة على الدلالة عليه وإقامة الحجة له. ولعله يأتينا شيء من الآيات القرآنية الدالة على هذا القول .

فقوله : القرآن هو كلام الله : أي أن القرآن كلام تكلم الله به جل وعلا ،

فالله سبحانه يتصف بصفة الكلام كما دلت النصوص على هذا ، قال

تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١٦٤) النساء: ١٦٤ ، فدل هذا على أن الله

متصف بصفة الكلام ، وكلام الله صفة اختيارية يتكلم متى شاء سبحانه

وتعالى ليس كلامه صفة له في الأزل ثم لم يعد يتكلم بعد ذلك كما تقول

بعض الطوائف ، بل هو سبحانه كلما أراد أن يتكلم تكلم ، ويدل على هذا

أن الله قد حكى عن وقائع وحوادث لأفعال بني آدم بصيغة الماضي مما يدل

على أن فعلهم لها قبل كلامه جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي

جُتِدُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ المجادلة: ١ ، فمعنى أن المجادلة حصلت قبل تكلم الله جل

وعلا بهذه الآية .

وهكذا أخبر الله عن حوادث ماضية بأنها قد حدثت: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى ﴾

غافر: ٢٣، فهذا خبر عن أمر ماضي ، لو كان كلام الله لو كان القرآن كلاما

أزليا وأن الله لا يتكلم متى شاء لقال : سنرسل موسى ونحو ذلك .

ثم قال: المتزل أي أن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى، ففيه إثبات صفة العلو لرب العزة والجلال قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (٢٣) وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١ .

وهذا الكتاب مُنَزَّلٌ على محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم الأنبياء ؛ أما كونه رسولا فقد قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ الفتح: ٢٩ ، وأما كونه خاتم الأنبياء فكما قال جل وعلا: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ آل عمران: ١٤٤ ، وقال جل وعلا في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ الأحزاب: ٤٠ ومعنى ختمه للنبوّة أي أنه لا يرسل أحدا بعده لا من نبي ولا من رسول ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: [لا نبي بعدي] (٨) وهذا يدلّك على أن هذه الشريعة ستبقى إلى قيام الساعة لأن الله جل وعلا قد تكفل بإقامة الحجّة على عباده ، وحجته على العباد في هذه الرسالة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا لا بد أن يكون في كل زمان قائلون يقومون بهذه الشريعة يبلغونها للناس .

(٨) - أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل - حديث: 3286 ، ومسلم

كتاب الإمارة ، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء - حديث: 3518 .

قال: المبدوء بسورة الفاتحة: أي أن أوله سورة الفاتحة، وسورة الفاتحة جزء من الكتاب وهي أول سورة فيه سميت الفاتحة لأنه يُفتح بها كتاب الله جل وعلا، أو لأنه تُفتح بها الصلاة، أو لأنه يُفتح بها الخير والنماء والبركة.

المختوم بسور الناس: أي أن آخر هذا الكتاب سورة الناس، وترتيب القرآن بسوره الصواب أنه توقيفي وليس من الأمور الاجتهادية من الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عرض القرآن في رمضان على جبريل، كان يعرضه في كل سنة مرة فلما جاءت السنة الأخيرة قبل وفاته صلى الله عليه وسلم عرضه مرتين (9)، وهذا العرض لا يكون إلا بترتيب، فكان هذا الذي بين أيدينا هو العرض الذي عرضه محمد صلى الله عليه وسلم على جبريل في رمضان آخر سنة له.

و قال طائفة: بأن هذا الترتيب وإن كان في أصله مأخوذاً من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه قد اجتهد الصحابة في بعضه. ولو كان الأمر كذلك فإننا نقول قد وقع إجماع الأمة على هذا إجماعاً قطعياً، ومن ثمَّ فإن هذا الترتيب ترتيب مقطوع به مجزوم به، ومن ثمَّ لا يصح لأحد أن يعارضه أو أن يخالفه، ولعله يأتي بحث لذلك فيما يأتي.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ﴿٢٣﴾ الإنسان: ٢٣ يصف الله جل وعلا نفسه بضمير الجمع على سبيل التعظيم وإلا فهو سبحانه واحد كما قال

(9) - خرجه الطبراني في المعجم الكبير - باب الباء، ما انتهى إلينا من مسند النساء اللاتي روين عن رسول

الله - ما روت عائشة أم المؤمنين، حديث: 18850.

تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَحْدٌ﴾ البقرة: ١٦٣ وكما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١ .

وقوله: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٣٣) التتريل أعظم معنى من التزول لأن التتريل فيه تعظيم للمترل ، وقد قيل إن التتريل يتضمن التزول المرفق لآيات القرآن ، أما التزول فلا يقتضي التفريق ، أما إذا قيل: ﴿نَزَّلْنَا﴾ فإنه يقتضي التفريق .

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي نزل بلغة العرب ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢) يوسف: ٢ أي من أجل أن تفهموا هذا الكتاب ، وفيه دلالة على أن لغة العرب ستبقى إلى قيام الساعة مهما كادها من كادها وأراد إلغائها .
ثم ذكر المؤلف شيئاً من خصائص هذا الكتاب :

* فأول هذه الخصائص أنه مترل من عند رب العزة والجلال ، قد تكلم به سبحانه وتعالى حقيقة .

* وثاني هذه الخصائص أنه قرآن عربي نزل بلغة العرب ؛ وذلك لأن لغة العرب أوسع الألسنة ، ولغة العرب أكثرها انتشاراً ، ولغة العرب هي الجامعة لكثير من الأساليب التي لا توجد في لغات أخرى ، ففي لغة العرب من الدلالات وأنواع المفاهيم ما لا يوجد في غيره من اللغات ، وفي لغة العرب من المعاني البديعة ما لا يوجد في كثير من اللغات .

* الصفة الثالثة لهذا الكتاب أنه محفوظ ، قد حماه الله جل وعلا فإن

هذا الكتاب قد تكفل رب العالمين بحفظه فلا يتمكن أحد من تغييره أو من
 الزيادة فيه أو نقص قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٩١ ﴾
 الحجر: ٩ والمراد بالذكر هنا كتاب الله جل وعلا ، فقد تكفل الله بحفظ هذا
 الكتاب ، ولذلك كانت الكتب السابقة قد أُكلَ حفظ ما فيها إلى أهلها -
 إلى أهل تلك الملل - فلم يحفظوها وحرّفوا فيها: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى
 وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا
 اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ المائدة: ٤٤ وأوكل الحفظ إليهم في الكتب السابقة ،
 أما هذا الكتاب العظيم القرآن الكريم فقد تكفل الله بحفظه وذلك لأن الله
 عزوجل أراد له البقاء ليقى ، فتكفل بحفظه حتى يبقى إلى قيام الساعة .
 ومن هنا لم يتمكن أحد من تغيير هذا الكتاب تغييرا ينطلي على الناس ، قد
 توجد محاولات لتغيير شيء من آيات الكتاب لكنها لا تنطلي على الناس
 ويكتشفها الخلق ، ومن السنن الكونية في هذا أن من حاول تبديلا لكتاب
 الله قمعه الله عزوجل وأمات محاولاته وهتك ستره وفضح أمره .

* هكذا من خصائص هذا الكتاب أنه مبارك : فيه نماء للعباد وزيادة
 لأحوالهم يبارك الله للعباد فيه متى ارتبطوا به يبارك لهم في عقولهم وتصوراتهم،
 يبارك لهم في أبدانهم، يبارك لهم في أموالهم وجميع أحوالهم: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
 مُبَارَكٌ ﴾ ص: ٢٩ ، وقال: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ الأنعام: ٩٢ .

* كذلك من خاصية هذا الكتاب أنه مؤثر : فإذا استمع له المستمع

بانصات وتأمل وتفكر في معانيه أثر ذلك في نفسه ، وانظر هذا جليا في سيرة أعداء الله في عهد النبوة لما تُقرأ عليهم آيات القرآن يجتارون فيها وتؤثر في نفوسهم أعظم التأثير ولذلك قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢١ ، وقال سبحانه: ﴿الْأَبْدَانُ لِلَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨ ، ولذلك نجد عند أهل القرآن من الطمأنينة والسكينة وتلقي المصائب العظيمة والابتلاء الكبير ما لا نجد عند غيرهم .

* هكذا أيضا من صفات كتاب الله جل وعلا أنه شامل : ما من شيء إلا وفي كتاب الله حكمه ، إذا نظرنا في الآيات القرآنية وفي القرآن وجدناه شاملا لم يترك شيئا من أحوال الناس إلى قيام الساعة إلا وقد شمله بأحكامه ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل: ٨٩ .

إذا عرضنا أحوال الناس وما يعرض لنا من قضايا على كتاب الله وجدنا في كتاب الله ما هو حل لها، ما كأنه أنزل في يومنا هذا ليتحدث عن أمرنا وشأننا الذي راجعنا الكتاب من أجله.

* ومن خاصية هذا الكتاب أنه ناسخ للكتب السابقة وحاكم عليها: كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ المائدة: ٤٨ .

* و من خاصية هذا الكتاب أن رب العزة والجلال يجعل لأصحابه ولأهله مكانة ومترلة فهم المعظمون وهم الذين لهم المجد ولهم الثناء الحسن، فإن الله وصف هذا الكتاب بأنه القرآن العظيم والقرآن المجيد، فهذه الصفات للقرآن يستقيها أصحاب القرآن منه.

* وهكذا أيضا من صفات هذا الكتاب أن اتباع هذا الكتاب

والسير على طريقته كما أنها من أسباب رضا رب العالمين ، فهي من أسباب الرحمة ونزول الخيرات في الدنيا وابتعاد المشاكل : كما قال سبحانه: ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥] ، وكما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] أقوم معناها مأخوذ من القوامه فهو يقيم أحوال أصحابه ويجعلها على أحسن الطرائق والمناهج .

و قال: فإن قال قائل: إن بعض الناس إذا استمع لهذا القرآن زاد في عدائه للإسلام وأهله، وزاد في فسقه وفجوره.

فنقول في مثل هذا : بأن من نظر إلى القرآن بالعناد وبتكبر أو بالمضادة فإن الله جل وعلا يجازيه على سوء عمله ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] ، ومن هنا فإنهم لا يهتدون إلى حقيقته ولا يسيرون معه وقد يقدمون الأمور الدنيوية على اتباع هذا الكتاب يظنون أن الدنيا تحصل لهم بمخالفته ، والحقيقة أن الدنيا لا تحصل إلا باتباعه ، فإنه ولو حصل شيء من الأمور الدنيوية للمضادين للكتاب لكنهم لا ينتفعون بها ، وإنما الذي ينتفع بها تمام

الانتفاع هم أصحاب هذا الكتاب قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ

لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

الأعراف: ٣٢ ، ومن هنا قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ

زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ التوبة: ١٢٤

فيها أن الإيمان يزيد بسماع آيات هذا الكتاب والعمل بها ، وأن الإيمان ليس على رتبة واحدة بل هو على رُتب متفاوتة وأن أهله يتفاضلون .

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ أي تأتيهم الأخبار السارة و البشارات الطيبة

، ففيه دلالة على أن أهل الإيمان بسماعهم للكتاب وعملهم به يستبشرون أي تأتيهم البشارات تلو البشارات .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي مرض الشبهات ﴿ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى

رِجْسِهِمْ ﴾ الرجس الذي لديهم جعلهم لا ينتفعون بهذا الكتاب ﴿ وَمَاتُوا

وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ التوبة: ١٢٥ .

* ومن خصائص هذا الكتاب أنه يقوي الناس على مجاهدة العدو ،

يستمتع المؤمنون لآية من آيات كتاب الله فيتقون و... ويكون سبباً من أسباب انتصارهم على العدو بإذن الله تعالى.

* وهكذا هذا الكتاب فيه الحجج الواضحة البينة التي ترد على

جميع الشبه ؛ ما من شبهة يثيرها الناس في أي عصر من العصور إلا وفي

كتاب الله حلها وكشفها والجواب عنها ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَلَا تَطْعَم

الْكَافِرِينَ وَجَعَلَهُمْ بِيءٍ ﴿٥٢﴾ أي بهذا القرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ الفرقان: ٥٢ سواء كان جهاد البدن أو جهاد الحجج والإقناع .

وقوله: ﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ لأن الكافرين يريدون من أهل الإيمان أن يتركوا دينهم وألا يسيروا على مقتضى أدلتهم الشرعية كتابا وسنة ، فنهى الله جل وعلا النبي صلى الله عليه وسلم عن طاعتهم في ذلك .

* وكذلك من خصائص هذا الكتاب أن الهدى معلق به: من سار

عليه وتمسك به وطلب الهدى فيه حصل طريق الهدى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ النحل: ٨٩ .

* كذلك من خصائص هذا الكتاب أنه المصدر الأصيل للأحكام

الشرعية : الأحكام الشرعية تأخذ من كتاب الله عزوجل وتأخذ من الأدلة

التي دل على حجيتها كتاب رب العالمين قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ

إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

﴿١﴾ إبراهيم: ١ .

وخصائص كتاب الله كثيرة متعددة، ما ذكره المؤلف هنا نماذج منها ولعلنا نشير إليها في لقاء سابق.

وأما سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهي كذلك أيضا مصدر تشريعي تأخذ

منه الأحكام الشرعية ، فإن الله عزوجل قد أمر باتباع هذا النبي صلى الله

عليه وسلم كما قال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا

﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الأحزاب: ٣٦ ، وكما قال جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ النساء: ٥٩ ، وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الأنفال:

١ في نصوص كثيرة تأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ

الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣ عن

أمره أي عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

فالمقصود أن السنة من مصادر التشريع وقد دل عليها كتاب الله جل وعلا ،

وهناك مصادر تشريع أخرى من مثل الإجماع والاستصحاب قد دلت عليها

نصوص قرآنية أو نبوية .

والأحكام ترجع إلى كتاب الله عز وجل إما بحديثها عن الأحكام أصالة أو

بتقرير الدليل الدال على أحكامها .

هذا شيء من خصائص القرآن الكريم ، ولعلنا إن شاء الله نتحدث في لقائنا

القادم عن نزول القرآن .

1- نزول القرآن

نزل القرآن أول ما نزل على الرسول صلي الله عليه وسلم في ليلة
 القدر في رمضان، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ ﴾ **القدر: ١ ،** ﴿
 إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٢﴾ **فيها يفرق كل أمر حكيم ۝٤** **الدخان: ٣**
 - ٤ ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ
 الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۝١٨٥﴾ **البقرة: ١٨٥ .**

وكان عمر النبي صلي الله عليه وسلم أول ما نزل عليه القرآن أربعين سنة
 على المشهور عند أهل العلم ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما
 وعطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم . وهذه السن هي التي يكون بها بلوغ
 الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك .

والذي نزل القرآن من عند الله تعالى إلى النبي صلي الله عليه وسلم ،
 جبريل أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿ وَإِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١١٢﴾ **نزل به الروح الأمين ۝١١٣﴾** **على قلبك لتكون من المنذرين ۝١١٤﴾** **بلسان عربي**
مبين ۝١١٥﴾ **الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥ .**

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم
 والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة

والحسن والطهارة؛ ما جعله أهلاً لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى
رسوله قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ
أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ التكويد: ١٩ - ٢١ . وقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ
بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾﴾ النجم: ٥ - ٧ .

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ النحل: ١٠٢

شرح الفصل الأول : نزول القرآن

هذا الفصل فيه عدد من المباحث والمسائل :

– أول هذه المسائل أن القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله عزوجل ، وقد تواترت النصوص في إثبات هذا المعنى قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ الفرقان: ١ ، وقال جل وعلا : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١ ﴾ الحجر: ٩ ، وفي هذا إثبات أن القرآن من عند الله عزوجل وهو المتكلم به سبحانه وتعالى حقيقة ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٦ ، وفي هذا أيضا إثبات صفة العلو لله جل وعلا وقد تواترت النصوص بإثبات هذه الصفة كما دل عليها الفطرة والعقل .

– والأمر الثاني مما احتواه هذا الفصل أن القرآن أو ما نزل في ليلة القدر ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ ﴾ القدر: ١ ، وليلة القدر ليلة من ليالي شهر رمضان هي في العشر الأواخر منه قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾ الدخان: ٣ والمراد بهذه الليلة المباركة ليلة القدر بدلالة الآية الأخرى ، وليس المراد بها ليلة النصف من شعبان ولا ليلة أول محرم ولا غيره ، إنما المراد بها ليلة القدر ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ ۝١ ﴾ البقرة: ١٨٥ فدل هذا على أن نزول القرآن كان في شهر رمضان .

وقد اختلف أهل العلم في بيان المراد بهذه الآيات على قولين مشهورين:

القول الأول: أن المراد إنزال القرآن إلى السماء الدنيا في بيت العزة كما

ورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال به جمهور أصحابه.

والقول الثاني: أن المراد ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر، ونزل بعد

ذلك منجماً. وهذا قاله جمهور الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد وقف العلماء من هذا الخلاف موقفين:

* منهم من يقول: نرجح قول الجمهور لأن إثبات أن القرآن نزل

كاملاً في ليلة

واحدة إنما قال به صحابي واحد ونحن لا نثبت الشيء بناء على

قول صحابي

واحد متى خالفه غيره من الصحابة.

* والموقف الثاني يقول: بأنه لا يمتنع أن يكون الأمران ثابتين،

فيكون جبريل قد

نزل بالقرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم بعد ذلك يكون

جبريل عليه

السلام قد سمع القرآن من رب العزة والجلال فبلغه إلى الناس .

ولعل هذا أظهر فبه تجتمع الأقوال ولا يكون هناك تناقض أو تضاد بينها.

ثم ذكر المؤلف عمر النبي صلى الله عليه وسلم وقت إنزال القرآن وأنه كان

عمره أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم.

لماذا اختيرت هذه السن ؟ لأن هذه السن وقت بلوغ الأشد ويحصل بها تمام الإدراك ويكون عند الإنسان فيها من الخبرة والرأي ما يجعله مؤهلاً لحمل الرسالة.

ثم ذكر من قام بإنزال القرآن وهو جبريل عليه السلام وقد جاءت النصوص بفضل جبريل وبيان منزلته وكانت اليهود يعادون جبريل بزعمهم و ينافرونه ، وقد قال جل وعلا : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ البقرة: ٩٧ الآية .

وقد جاءت النصوص بالثناء على جبريل عليه السلام بصفات كثيرة منها عظم خلقه عليه السلام فقد ورد أن له ستمائة جناح (10)، وقد وصفه الله بأنه ذو قوة وبأنه مكين عند ربه وأنه مطاع وأنه أمين.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٩) التكويد: ١٩ المراد بذلك قول جبريل وليس المراد به أنه المتكلم به وإنما المراد أنه الناقل له ، فإن القول قد ينسب إلى المتكلم به وقد ينسب إلى الناقل له ، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ من الله لأنه كلام الله

(10) - رواه البخاري في صحيحه : كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء -

حديث: 3076 ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب في ذكر سدرة المنتهى - حديث: 279 .

حقيقة ﴿بِالْحَقِّ﴾ ليس فيه باطل ولا مرية ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ النحل:

١٠٢ فتزول هذا القرآن من أسباب ثبات المؤمنين على الخير والهدى ، نعم .

2- أول ما نزل من القرآن:

أول ما نزل القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ العلق: ١ - ٥ . ثم فتر الوحي مدة، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وزهني قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤﴾ المدثر: ١ - ٥ . ففي ((الصحيحين)): صحيح البخاري ومسلم (1). عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت : حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم ما أنا بقارئ (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث ، وفيه ثم قال : ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ العلق: ١ - ٥ . وفيهما (1) عن جابر رضي الله عنه، أن النبي صلي الله عليه وسلم قال وهو يحدث عن فترة الوحي: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من

(1) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب 1 : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، حديث رقم 4 ؛ ومسلم كتاب الإيمان باب 73 : بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، حديث رقم

السماء...) فذكر الحديث، وفيه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ إلى : ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ المدثر: ١ - ٥ .

وتمت آيات يقال فيها : أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين ، فتكون أولية مقيدة مثل : حديث جابر رضي الله عنه في ((الصحيحين)) (2) . إن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ المدثر: ١ قال أبو سلمة : أثبت أنه ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمَرِيكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ العلق: ١ فقال جابر : لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (جاورت في حراء فلما قضيت جوارى هبطت ...) فذكر الحديث وفيه : (فأتيت خديجة فقلت : دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً ، وأنزل علي : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ إلى : ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ المدثر: ١ - ٥ .

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي ، أو أول ما نزل في شأن الرسالة ؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به

(2) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب 3 قوله : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) حديث رقم 4924 ؛ ومسلم كتاب

الإيمان باب 73: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم 409 { 257 } 161

الرسالة في قوله ﴿قُرْآنًا نَّذِيرًا﴾ (٢) ولهذا قال أهل العلم : إن النبي صلى الله عليه وسلم نبي ب ﴿أَقْرَأ﴾ العلق: ١ وأرسل ب ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ المدثر: ١ .

شرح الفصل الثاني: أول ما نزل من القرآن

تكلم المؤلف هنا رحمه الله عن أول ما نزل من القرآن ، وبين أن أولية الإنزال قد تكون على جهة الإطلاق وقد تكون على جهة النسبية ، فأما أول ما نزل على الإطلاق فهو أول سورة العلق ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ العلق: ١ إلى خمس آيات منها ؛ وذلك أنه قد ورد في الصحيحين (11) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعبد الليالي ذوات العدد في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ يعني أنني لا أعرف القراءة .

أما أول ما نزل من القرآن على جهة النسبية فهذا يختلف باختلاف النسب التي يجري الكلام عليها ، فهناك مثلا نسبية متعلقة بمكان كأول ما نزل بالمدينة ، ونسبية متعلقة بالزمان كقول بعضهم : أول ما نزل بعد سورة الأحزاب كذا ، وهناك أول ما نزل في الحج آية كذا .
و هناك نسبية متعلقة بالموضوع ، فيكون هناك موضوع من الموضوعات نزلت فيها آيات متعددة فيقول الصحابي: أول ما نزل من القرآن كذا يعني في هذا الموضوع.

ومن أمثله قول بعض الصحابة: أول ما نزل من القرآن - يعني في شأن

(11) - أخرجه البخاري في صحيحه : باب بدء الوحي - حديث : 3 ، وفي : كتاب تفسير القرآن سورة

البقرة - سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق - حديث: 4675 .

الخمر - : ﴿ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ النحل: ٦٧ (12) .

وقول آخر: أول ما نزل في القرآن - يعني في شأن اليتامى - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتِمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ النساء: ١٠ حتى

تخرجوا من ذلك وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فتزل قوله تعالى: ﴿

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ آلَيْتِمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٠ الآية

(13).

وقوله ه نا: ثم فتر الوحي مدة : أي أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن

نزلت عليه سورة العلق توقف الوحي عنه مدة من الزمن، ففتر يعني توقف،

ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر.

وذكر المؤلف حديث جابر في هذا ، ثم ذكر حديث أبا سلمة بن عبد الرحمن

بن عوف وأن بعضهم يقول : أول ما أنزل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ المدثر: ١ أي بعد

(12) - قال الإمام أبو جعفر الطبري - رحمه الله - في تفسيره عند هذه الآية : حدثنا سفيان بن وكيع ، قال :

ثنا إسحاق الأزرق ، عن زكريا ، عن سهاك ، عن الشعبي ، قال : " نزلت في الخمر أربع آيات : يسألونك عن

الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس فتركوها ، ثم نزلت : تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا فشربوها

. ثم نزلت الآيتان في المائة إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام إلى قوله : فهل أنتم متتهون " .

(13) - أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الوصايا ، باب مخالطة اليتيم في الطعام - حديث: 2502 ، والنسائي

في الكبرى : كتاب الوصايا ، ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه - حديث: 6302 . وحسنه العلامة الألباني

في صحيح أبي داود برقم : 2871 .

فترة الوحي فهذه أولية من جهة الزمان .

قال المؤلف : لأن ما نزل من سورة إقرأ ثبتت به نبوة النبي صلى الله عليه

وسلم ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة ، فإن قوله : ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

الَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ العلق: ١ اقرأ فعل أمر ، ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ﴾ العلق: ٢ أي

من أصل مادته وهو العلقة التي تكون في أول حياة الجنين ، وقيل المراد به

النطفة ، وقيل المراد به ماء الرجل . ﴿ اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ ﴾ العلق: ٣ لأنه قد

تكرم على الناس بكونه قد علمهم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ١ قُرْآنًا نَذِيرٌ ٢ ﴾ المدثر: ١ - ٢ أي خوِّف الناس من

الله ومن عقوبته ، ﴿ وَيَأْتِيكَ فَطَهْرٌ ٤ ﴾ المدثر: ٤ أي أبعد عنها مظاهر الشرك أو

أبعد عنها النجاسات ، ﴿ وَيَأْتِيكَ فَطَهْرٌ ٤ ﴾ المدثر: ٤ أي الأصنام اتركها ولا

تلتفت إليها لا بعبادتك ولا بقلبك .

قال : ولهذا قال أهل العلم إن النبي صلى الله عليه وسلم نبي بإقرأ وأرسل

بالمدثر ، وفي هذا دلالة على أن مرتبة النبوة مغايرة لرتبة الرسالة وأنهما ليسا

على رتبة واحدة كما يقول بعض الناس ، بل هما رتبتان مختلفتان ، ويدل

على هذا قوله تعالى عن عدد من أنبيائه كموسى ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١ ﴾ مريم:

٥١ مما يدل على المغايرة بين وصف الرسالة ووصف النبوة وإلا لما صح أن

يؤتى بأحد الوصفين بعد الآخر ولكان تكرارا لا فائدة منه ، ويدل عليه قوله

تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الحج: ٥٢ . فدل هذا على الفرق بين الرسول وبين النبي . وقد جاء في حديث أذكار النوم أن النبي صلى الله عليه وسلم علم البراء أذكار النوم وقال : إذا أويت إلى فراشك .. إلى أن قال : [**وقل : آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت**] ، قال: فكررتها لأحفظها فقلت : ورسولك الذي أرسلت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [**لا ونبيك الذي أرسلت**] (14) فلو كان معناهما واحدا لما قال له طالبا منه تعديل لفظة [**ونبيك الذي أرسلت**] (15).

وقوله: ﴿ **الْمُدَّثِّرُ** ﴾ المراد بها المتغطي الذي غطى نفسه، نعم.

(14) - أخرجه البخاري : كتاب الوضوء ، باب فضل من بات على الوضوء - حديث: 243 .

(15) - ولمزيد بحث في الفروق بين النبي والرسول ينظر كتاب : تنوير العقول في الفرق بين النبي والرسول للشيخ الفاضل محمد بن عبد الله الإمام البياني - حفظه الله - .

3- نزول القرآن ابتدائي وسيبي

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين :

الأول ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰمَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتٰنَا مِنۡ فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوننَّ مِنَ الصّٰلِحِينَ ﴾ ^(٧٥) التوبة: ٧٥

الآيات فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة ابن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له. (3)

القسم الثاني سبي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه. والسبب:

أ - إما سؤال يجيب الله عنه مثل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهْلِ ٱلْقُلُوبِ ﴾ ^(١٨٩) البقرة: ١٨٩ .

ب - أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ^(٦٥) التوبة: ٦٥ الآيتين نزلتا في رجل

(3) رواه الطبراني ، وفيه على بن يزيد الألهاني وهو متروك .

من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أقرب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر النبي صلى الله عليه وسلم فيجيبه ﴿قُلْ أِبَالَهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ التوبة: ٦٥ (4).

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ المجادلة: ١

(4) ذكر هذه الحادثة ابن كثير في تفسيره (2/368)، والطبري أيضاً (10/172)

شرح فصل : نزول القرآن ابتدائي وسببي

قسم المؤلف نزول القرآن إلى قسمين :

– القسم الأول : ابتدائي بأن لا يكون لإنزاله سبب لذات ذلك

، وقال : بأنه غالب آيات القرآن ، ومثل له بآية التوبة ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ

عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ وَلَنُكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ التوبة:

٧٥ والظاهر في هذا أن هذه الآية نزلت على سبب ، لأنه قال : ﴿

وَمِنْهُمْ ﴿ أي من المنافقين ، وهو في وصف أحوالهم سواء كان هذا المذكور في هذه القصة التي هي في معجم الطبراني بسند فيه متروك فهو ضعيف جدا ، أو قصة أخرى لم تنقل إلينا ، ولذلك فإن بعض الآيات يكون لها سبب فننقل الآية لكن لا ينقل السبب و يكتفى بنقل الآية عن نقل سببها ، ولذلك ذهب طائفة من أهل العلم إلى أن آيات القرآن نزلت على أسباب وجدت قدرها الله عزوجل وخلقها من أجل أن تكون سببا من أسباب نزول هذه الآيات ولذلك ورد عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا إن القرآن قد قُسم على الحوادث ، فدل هذا على أن آيات القرآن إنما تنزل بسبب ، سواء كان هذا السبب طلبا كما في قصة أهل الكهف فإنها نزلت إجابة لطلب من سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن قصتهم (16) ، أو كانت لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم لثلاثا تفتقر نفسه في

(16) - قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره : حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ،

عن قتادة ، قوله : ويسألونك عن الروح لقيت اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فتغشوه وسألوه وقالوا

الدعوة إلى الله ويستفيد من ذلك الدعوة إلى الله بعده بالاستمرار على الدعوة إليه جل وعلا وألا يلتفتوا إلى أولئك المخذلين وأولئك المعاندين والمعادين للإسلام وأهليه .

- أو يكون سبب نزول القرآن حادثة تحتاج إلى بيان حكمها ،

وهذا في مواطن كثيرة ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨) المنافقون : ٨ فهذه نزلت تحذيرا من مقالة هؤلاء

المنافقين وتخويفا لهم بالله جل وعلا ، وهكذا أيضا آية التيمم نزلت في قصة وحادثة بعينها في عهد النبوة .

ولذلك فإن الأظهر أن آيات القرآن نزلت لأسباب : إما لجواب شبهة

كانت موجودة في ذلك الزمان ، أو لجواب سؤال أو لبيان حكم في حادثة أو للتحذير من بعض المظاهر الموجودة عندهم ، وأنه ليس هناك ما ليس له سبب ، لكن قد ينقل لنا السبب بواقعة معينة وقد يكون السبب مفهوما من الآية وقد لا يكون في نقل السبب فائدة ولذا لم ينقلوه لنا ونحو ذلك .

هذا شيء من مباحث أقسام تقسيم نزول القرآن ، نعم .

: إن كان نبيا علم فسيعلم ذلك ، فسألوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، فأنزل

الله في كتابه ذلك كله ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا يعني

اليهود .

فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدا ، لأنها تؤدي على فوائد كثيرة منها :

1- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانا، حتى يتزل عليه الوحي، أو يخفي الأمر الواقع، فيتزل الوحي مبينا له.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥) . ففي صحيح البخاري " (1) عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلا من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامي ، فلما نزل الوحي قال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥) الآية .

(1) أخرجه البخاري كتاب العلم باب قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) حديث رقم (125) ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ، وقوله (ويسألونك عن الروح ...) الآية . حديث رقم (2794).

مثال الثاني قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ المنافقون: ٨ وفي صحيح البخاري (2) أن زيد ابن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله ابن أبي رأس المنافقين يقول ذلك ، يريد أنه الأعز ورسوله الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأزل ، فأخبر زيد عمه بذلك ، فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم زيدا فأخبره بما سمع ثم أرسل إلى عبد الله ابن أبيه وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية ؛ فاستبان الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

2- بيان عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم في الدفاع

عنه مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ الفرقان: ٣٢ وكذلك آيات الإفك ؛ فإنها دفاع عن فراش النبي صلى الله عليه وسلم وتطهير له عن ما دنسه به الأفاكون .

(2) أخرجه البخاري كتاب التفسير سورة المنافقون باب قوله (إذا جاءك المنافقون قالوا إنك لرسول الله) الآية . حديث رقم (4900) ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب صفات المنافقين وأحكامهم . حديث رقم (367).

3- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غموضهم .
 مثال ذلك آية التيمم ، ففي " صحيح البخاري " (3) أنه ضاع عقد لعائشة رضي الله عنها ، وهي مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فأقام النبي صلى الله عليه وسلم لطلبه ، وأقام الناس على غير ماء ، فشكوا ذلك إلى أبي بكر ، فذكر الحديث وفيه : فأنزل الله آية التيمم فتيّموا فقال أسيد بن حضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر . والحديث في البخاري مطولاً .

4- فهم الآية على الوجه الصحيح . مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَآ جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ أن يَسْعَى بَيْنَهُمَا ، فإن ظاهر قوله : ﴿ فَلَآ جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما ، أن يكون من قسم المباح ، وفي صحيح البخاري " (4) عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة ، قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلَآ جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ البقرة: ١٥٨ أي يسعى بينهما ، فإن ظاهر قوله : ﴿ فَلَآ جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما ، أن يكون من قسم المباح ، وفي صحيح البخاري " (4) عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة ، قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلَآ جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ البقرة: ١٥٨

(3) أخرجه البخاري كتاب التيمم قوله تعالى (فلم تجدوا ماء فتيّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه حديث رقم (334) ومسلم كتاب الحيض باب التيمم حديث رقم (367)

(4) أخرجه البخاري كتاب الحج باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة ، ومسلم كتاب الحج باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به حديث رقم (1278)

وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل السعي ، وإنما المراد نفي تخرجهم يأمسأكهم عنه ، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية ،

أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ البقرة: ١٥٨ .

شرح مبحث : فوائد معرفة أسباب النزول

ذكر المؤلف هنا الفوائد المترتبة عن معرفة أسباب النزول، وذكر أن من الفوائد:

* أن نعرف أن هذا القرآن نزل من عند الله ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم في الحوادث ابتداء بل توقف حتى نزل إليه الوحي بحكم هذه النوازل ، مما يدل على أن هذا النازل ليس من عند نفسه وإنما هو من عند الله جل وعلا ، ومن المعلوم أن من طبيعة الإنسان خصوصا الراغب في العلو أن يدعي معرفة كل شيء ، فكون النبي صلى الله عليه وسلم يتوقف حتى يتزل إليه القرآن دليل على أن هذه الشريعة المباركة من عند الله وأن هذا القرآن هو كلام رب العزة والجلال .

* ومن فوائد ذلك أن المرء يعرف معاني الآية القرآنية التي نزلت بسبب هذه الحادثة التي وقعت في عهد النبوة ، فإن الإنسان إذا أطلع على الآية ولم يعرف سببها فقد يترها على غير المراد بها ، كما ذكر المؤلف في آية البقرة فيما يتعلق بالصفاء والمروة .

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي يَسْنَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٍ ﴾ الطلاق: ٤ فهنا قد يقول قائل : هذه الآية فيما ارتبن فيه أما إذا لم يكن هناك ريبة ولا شك فلا يدخل فيها .

فيقال: إن قوله: ﴿ إِنْ أَرْبَبْتُمْ ﴾ المراد بها يفسره سبب نزول هذه الآية وهو أنهم شكوا في شأن المرأة التي تكون كبيرة لا تحيض فترلت الآية في بيان أن من كان كذلك فعدتها ثلاثة أشهر .

وأيضاً عندما يطلع الإنسان على قوله عزوجل: ﴿فَأَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾^ط
البقرة: ١٩٦ يقع في إشكال: ما المراد بالهدي؟ هل يجزئ فيه سُبُعُ البدنة أو
نحو ذلك؟ ينظر في سبب نزول هذه الآية فيجد أن سبب نزولها حادثة
كعب بن عُجرة ويجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: [أُنسك شاة]
(١٧)، فيذبح شاةً .

* وكذلك من فوائد معرفة أسباب التزول ألا نخصص سبب التزول
من اللفظ العام؛ فإن الآية العامة قطعية الدلالة في سبب التزول وبالتالي لا
يصح لنا أن نخصص صورة السبب من اللفظ العام، نعم.

(١٧) - أخرجه ابن ماجه : كتاب المناسك ، باب فدية المحصر - حديث: 3077 . وصححه العلامة

الألباني في صحيح ابن ماجه برقم : 3135 .

عموم اللفظ وخصوص السبب :

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملا لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها، لأن القرآن كان نزل تشريعا عاما لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللعان ، وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾ النور: ٦ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١ ﴾ النور: ٩ ، ففي صحيح البخاري " (1) من حيث ابن عباس رضي الله عنهما : أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم : البينة أو حد في ظهره ، فقال من الحد ، فترل جبريل ، وأنزل عليه : ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١ ﴾ النور: ٩

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته ، لكن حكمها شامل له ولغيره ، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، رجل وجد مع امرأته رجلا أيقنته فتقتلونه أم كيف يصنع ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد أنزل الله القرآن

(1) أخرجه البخاري كتاب الشهادات باب إذا دعي أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة .

حديث رقم (2671).

فيك وفي صاحبك . فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعة
بما سمي الله في كتابه ، فلاعنها . الحديث (2) .

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم حكم هذه الآيات شاملا لهلال بن
أمية وغيره .

(2) أخرجه البخاري كتاب التفسير سورة النور باب قوله عز وجل (وَالَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُمْ شُهَدَاءُ) الآية . حديث رقم (423) ومسلم كتاب اللعان حديث رقم (1492) .

شرح مبحث : عموم اللفظ وخصوص السبب :

الألفاظ التي ترد في النصوص منها ما يكون خاصا ومنها ما يكون عاما، وألفاظ العموم لها صيغ محددة فإذا ورد شيء من هذه الصيغ قيل بأن الآية عامة.

من أمثلة ذلك لفظ "كل" كقوله : ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ البقرة: ٢٨٢

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران: ١٨٩ ، ومن أمثلة ألفاظ العموم قوله

كافة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

سبأ: ٢٨ ، ومن أمثلة ألفاظ العموم ما كان مسبوqa بال الجنسية كقوله

تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ العنكبوت: ٢ - ٣ ، ومن

أمثله أيضا الأسماء المبهمة من مثل قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الزلزلة: ٧ ، ومن علامات كون اللفظ من ألفاظ

العموم أن يأتي بعده استثناء ، إذا جاءنا اللفظ العام وكان سببه خاصا

فحينئذ هل نقول : إن العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ؟

الأسباب التي تنزل الآيات أو ترد الأحاديث من أجلها على نوعين:

- أسباب شخصية : فحينئذ نقول العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب بإجماع العلماء ، ولذلك فإن الصحابة أجمعوا على أن آيات

القذف لا تختص بذلك الرجل الذي تكلم في امرأته عند النبي صلى الله

عليه وسلم ، وآيات الظهار لا تختص بقيس بن ثابت بن الشماس عندما

ظاهر من زوجته ، وهكذا أيضا قوله تعالى : ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ

الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾

البقرة: ١٨٧ فليست الآية خاصة بعمر أو بمن قيل إن الآية نزلت فيه .

ومثله أيضا لما جاء ابن أم مكتوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا

رسول الله إن الله يقول : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في

سبيل الله ﴾ { نزل الوحي فجاءت : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي

الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ النساء: ٩٥ الآية ، فهنا ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرِّ ﴾ نزلت

بسبب واقعة شخصية ، فحينئذ نقول العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب بإجماع أهل العلم ، وذلك لأن لفظ الآية عام ونحن إنما نُعَبِّدُنا

بلفظ الآية لا بالواقعة الحاصلة في عهد النبوة .

- النوع الثاني من أنواع الأسباب : الأسباب النوعية ؛ فإذا ورد لفظ

عام بسبب خاص ولكن هذا السبب ليس من الأسباب أو من الحوادث

الشخصية وإنما من الحوادث النوعية ، مثال ذلك : في السنة جاء في

الحديث أن ناسا جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول

الله إنا نركب البحر ور يكون معنا الماء . وفي لفظ : فإن توضحنا في ما

معنا من الماء ، أفتوضأ من البحر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم عن البحر

: [هو الطهور ماؤه الحل ميتته] (18) فهنا اللفظ عام ماء البحر [هو

الطهور ماؤه] ماء اسم جنس مضاف إلى معرفة فيفيد العموم ، والسبب

خاص لأنهم خصَّوه بما إذا ركبوا في البحر ، وخصَّوه بوقت احتياجهم

(18) - أخرجه الإمام أحمد : ومن مسند بني هاشم ، مسند أبي هريرة رضي الله عنه - حديث: 8554 .

وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع : 7048 .

للماء ، فهل نقول العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ؟ قال الجمهور : العبرة بعموم اللفظ ، وفي مذهب مالك أن العبرة بخصوص السبب .
و لعل قول الجمهور أقوى لأننا متعبدون بألفاظ الشارع بألفاظ القرآن والسنة ولسنا متعبدين بألفاظ الرواة أو الصحابة المتكلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأن الحكم لو كان خاصا لخصه النص ولم يعمم الحكم فيه .

و نشير إلى مسألة هنا وهي أن سبب النزول قد يتكرر فيتكرر نزول السورة مرة أو مرتين، و سبب النزول قد يكون للآية الواحدة أسباب نزول متعددة، وتعدد أسباب النزول على نوعين:

- النوع الأول : تعدد أسباب النزول لجميع الآية كما ورد في

حديث القذف أنه نزل في واقعتين ، وقد يكون سبب النزول متعددا بسبب أن كل جزء من الآية له سبب نزول خاص به ، من أمثلة ذلك آية : ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ البقرة: ١٨٧ فهذه نزلت في

واقعة ، وقوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ ﴾ البقرة: ١٨٧ هذه نزلت في واقعة أخرى ؛ الأول نزل في الذي أراد أن يجامع امرأته فلما جاء وأراد منها ما يريد الرجل من امرأته قالت : إني كنت قد نمتُ وكان عندهم أن من نام وجب عليه الإمساك إلى مغرب الغد ، فنزلت الآية في بيان أن أول وقت

الصيام يبتدئ بالفجر ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ البقرة: ١٨٧ ، يعني أن الرجل يقول لزوجنه أنت تكذبين في ادعائك أنك قد نمتِ

لأنك إنما تريد أن تتهربي مني ، فتزلت الآية تجيز الجماع إلى طلوع الفجر سواء حصل نوم بالليل أو لم يحصل (19).

ثم جاء في حديث آخر أن رجلاً كان عنده زراعة ، فاشتغل في زراعته فجاء إلى أهل بيته فسألهم عن الطعام فقالت زوجته سأذهب أطلب لك طعاماً ، فلما جاءت بالطعام وجدته قد نام ، فقالت : تعساً لك ، فلما جاء من الغد ذهب إلى زراعته واشتغل فيها ، فما جاءه الظهر إلا وقد سقط من الإعياء فتزلت الآية تبيح الأكل والشرب إلى طلوع الفجر (20).

ثم هناك سبب ثالث في حادثة عدي بن حاتم لما قال تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ** ﴾ البقرة: 187 جاء بخيطين ووضعهما تحت وساده ، ثم أصبح يقلب النظر فيهما فاستمر في الأكل حتى ميز الأبيض من الأسود ، فأخبر النبي **صلى الله عليه وسلم** بذلك فتزل قوله من الفجر: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** ﴾ البقرة: 187 (21) فبين أن المراد به ضوء الصباح وظلمة الليل وليس المراد به الخيطين اللذين يضعان تحت الوساد .

(19) - أنظر صحيح البخاري : كتاب تفسير القرآن ، سورة البقرة - باب أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم ، حديث:4247 ، ومسند الإمام أحمد : مسند المكين ، بقية حديث كعب بن مالك الأنصاري - حديث:15515 .

(20) - أخرجه البخاري: كتاب الصوم ، باب قول الله جل ذكره: أحل لكم ليلة الصيام الرفث، حديث:1827 .

(21) - أخرجه البخاري : كتاب الصوم ، باب قول الله تعالى : وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط - حديث:1828 ، ومسلم : كتاب الصيام ، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر -

هذا ما يتعلق بأحكام نزول الآيات، ولعلنا إن شاء الله نتكلم عن المكي والمدني في يوم آخر.

المكي والمدني

نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم مفرداً في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرها بمكة، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴿١٠٦﴾﴾ الإسراء: ١٠٦ ولذلك قسم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين : مكي ومدني :

فالمكي: ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة.

و المدني: ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾ المائدة: ٣ من القسم المدني وإن كانت قد نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بعرفة ، ففي الصحيح البخاري (3) عن عمر رضي الله عنه أنه قال : قد عرفنا ذلك اليوم ،

(3) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه حديث رقم (45) ومسلم كتاب التفسير

باب في تفسير آيات متفرقة حديث رقم (3015) .

والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم الجمعة .

و يتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب و الموضوع:

أ- أما من حيث الأسلوب فهو:

1- الغالب في المكي قوة الأسلوب ، وشدة الخطاب، لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون ، ولا يليق بهم إلا ذلك ، أقرأ سورتي المدثر ، والقمر .

أما المدني: فالغالب في أسلوبه البين، وسهولة الخطاب، لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، أقرأ سورة المائدة.

2- الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة الحاجة ، لأن غالب المخاطبين معادون مشاققون ، فخطبوا بما تقتضيه حالهم ، أقرأ سورة الطور .

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام، مرسلة بدون محاجة، لأن حالهم تقتضي ذلك، أقرأ الدين في سورة البقرة.

ب- و أما من حيث الموضوع فهو:

1- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة ، خصوصا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث ، لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك .

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات، لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

2- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فوائد معرفة المدني والمكي:

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة، وذلك أن فيها فوائد منها:

1- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

2- ظهور حكمه التشريعي في أسمى غاياته حيث يتدرج شيئاً فشيئاً بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ .

3- تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

4- تمييز النسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها.

شهر مبحث: المكي والمدني

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى هنا انقسام الآيات القرآنية إلى مكي ومدني، المكي نسبة إلى مكة، والمدني نسبة إلى المدينة.

وذلك أن الله جل وعلا يخاطب كل أناس بما يناسبهم من الخطاب والأحكام، فخطاب الله جل وعلا المتعلق بأهل مكة يغير خطاب المتعلق بأهل المدينة، فأهل مكة كانوا معرضين محاريين يمكرون بالإسلام وأهل الإسلام، وأهل المدينة كانوا منقادين إذا جاءهم الأمر بادروا إلى امتثاله، ومن هنا ناسب أن يخاطب كل أناس بما يناسب حالهم.

والنبي صلى الله عليه وسلم نزل عليه القرآن مفرقا ولم يتزل عليه جملة واحدة، في ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث وأسباب النزول وبحسب ما يحتاج إليه الناس من الأحكام الشرعية، وكان أغلب هذه المدة في مكة ولذلك كان أكثر سور القرآن مكية والمدني منها الأظهر أنه سبعة وعشرون سورة وأن ما بقي من سور القرآن فإنه مكي.

وقد اختلف أهل العلم في ضابط المكي والمدني، ذكر المؤلف هنا أحد الأقوال في هذا وهو أن المكي ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة، وأن المدني ما نزل عليه بعد الهجرة. وهذا ضابط دقيق يعرف به الحال.

بينما ذهب آخرون إلى أن المكي هو ما نزل بمكة، وأن المدني ما نزل بالمدينة. وعلى ذلك يكون ما نزل بمكة بعد الهجرة من المكي وليس من المدني، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا

﴿ النساء: ٥٨ ﴾ هذه الآية نزلت في مفاتيح الكعبة (22) في مكة ولم تنزل في المدينة ، هل هي مكية أو مدنية ؟ فإن قلنا: المكي ما نزل قبل الهجرة فهذه نزلت بعد الهجرة فتكون مدنية. و إن قلنا: المكي ما نزل في مكة فهذه الآية نزلت في مكة فتكون مكية.

لكن هذا القول يشكل عليه أن بعض الآيات لم تنزل لا في مكة ولا في المدينة كما نزل بعض الآيات في بعض الوقائع وفي ذهاب النبي إلى تبوك نزلت بعض الآيات ، ومن ثمَّ فإن القول الأول أرجح .

وبعض الناس قال : بأن الآيات المكية هي الموجهة لغير المسلمين أو التي

خاطب فيها الناس من مثل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١

، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ﴾ النساء: ١ فهذه الآيات نزلت

بالمدينة إلا أن المخاطبَ بها الناس ، فقال هؤلاء : بأن ما كان كذلك

يخاطب الناس عموماً فهو مكي ، وما كان يختصر الخطاب فيه على

المؤمنين فهو مدني .

و على ذلك فإن الآيات التي نزلت في ما يتعلق باليهود والنصارى، اليهود

في مثل سورة الحشر ، والنصارى في مثل سورة آل عمران في أوائلها

يقولون: هذه مكية لأن المخاطب بها غير المسلمين.

(22) - قال الإمام الطبري في تفسيره : القول في تأويل قوله تعالى : إن الله يأمركم أن تؤدوا : ذكر من قال ذلك : حدثني المنثى أقال : ثنا عبد الله بن صالح أقال : ثني معاوية أعن علي بن أبي طلحة أعن ابن عباس أ قوله : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها قال : " يعني : السلطان يعطون الناس " وقال آخرون : الذي خوطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في مفاتيح الكعبة أمر بردها على عثمان بن طلحة

و الضابط الأول هو الذي استقر عليه الاصطلاح، التفريق بين المكي والمدني بأن المكي ما نزل قبل الهجرة وان المدني ما نزل بعد الهجرة. ذكر المؤلف بعد ذلك فروقا بين الآيات المكية والآيات المدنية، وقبل هذا نقول: إن سور القرآن وآياته بالنسبة للمكية والمدنية على أربعة أنواع:

1- النوع الأول سورة كلها مكي، كلها نزلت بمكة من مثل سورة

الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١ سورة الكافرون ﴿قُلْ يَتَّيْبًا﴾ الكافرون: ١ فهذه نزلت في مكة، سورة الشعراء نزلت في مكة بكماها.

2- النوع الثاني: ما نزل في المدينة ، سور نزلت في المدينة ليس منها آيات مكية من مثل سورة المائدة - الأنعام مكية - سورة المائدة نزلت في المدينة، من مثل سورة التوبة هذه نزلت في المدينة بجميع آياتها.

3- النوع الثالث: سور مكية فيها آيات مدنية ، تكون فيها آية أو آيتان أو ثلاث مدنية.

4- و النوع الرابع: سور مدنية فيها آيات مكية.

ما الفرق بين المكي والمدني ؟

قال المؤلف : هناك فروقات :

* أولها في قوة الأسلوب وشدة الخطاب ؛ فإن الآيات المكية موجهة

للمشركين ولذلك فيها من قوة الخطاب ما ليس في الآيات المدنية الموجهة للمسلمين، انظر مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^{١٠٤} آل عمران: ١٠٤ هذه مكة ولا مدنية؟ مدنية ففيها أمر لكن فيها أسلوب سهل موجه إلى أهل الإيمان وفيها وصف للفلاح.

بينما الآيات المكية يكون فيها قوة وشدة وخطاب يناسب حال أولئك المعرضين المعاندين ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ^{١٣} فصلت: ١٣ .

وإن كان هذا في الغالب وإلا فإن في الآيات المكية من خطاب المنافقين ما فيه قوة وغلظة ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ^{١٤٥} النساء: ١٤٥ .

وكذلك أيضاً الخطاب الموجه إلى اليهود فإن فيه قوة لأنهم كانوا معرضين وكانوا يتآمرون على الإسلام وأهل الإسلام وكان عندهم نقض للعهد، فنسب أن يخاطبوا بما يتناسب مع حالهم.

* الفرق الثاني: أن لآيات المكية تتميز بقصر الآيات، والآيات

المدنية فيها طول، وهذا أيضاً في الغالب، انظر مثلاً إلى سورة الشعراء وقصر آياتها بخلاف سورة البقرة وسورة آل عمران فإن آياتها طويلة، وإن كان هناك آيات مكية تكون طويلة، هناك آيات مكية فيها طول مثل آيات سورة الأنعام.

* الفارق الثالث: أن الآيات المكية يكون فيها مجادلة وإقناع

وعرض بشبه المخالفين والجواب عنها ، ولا يجد الإنسان هذا في الآيات المدنية ، فالغالب في الآيات المدنية أن تكون في ذكر الأحكام الفقهية التي يحتاج الناس إليها وهذا في الغالب ، وإلا فهناك آيات مدنية فيها تقرير أحكام مثل أحكام الصلاة فإنها نزلت في مكة ، وهكذا في المدينة نزلت آيات فيها مجادلة ومحاجة من مثل الآيات المتعلقة بالنصارى في أوائل سورة آل عمران .

* كذلك من الفروقات فيما يتعلق بما مضى أن المكي يهتم في

الغالب بأمور المعتقد ، سواء ما يتعلق بتقرير المعاد أو بتقرير وجوب إفراد الله بالعبادة والتوحيد أو الرد على طرائق المشركين في أحكامهم وأعمالهم ، بخلاف الآيات المدنية فإنها في الغالب جاءت لبيان الأحكام الفقهية من عبادات ومعاملات وجنایات .

* أيضا من الفروقات أن الآيات المدنية فيها ما يتعلق بأحكام

الدولة سواء فيما يتعلق بأحكام الأتباع أو أحكام المعاملة مع غير المسلمين أو أحكام الصلح والجهاد والأمان وأحكام الذين ينضوون تحت الدولة الإسلامية وهم معادون لها من المنافقين ونحوهم ويظهرون أنهم مع الدولة وهم ضدها ، ومثل هذا لا يجده الإنسان في الآيات المكية .

ما الذي نستفيد منه التمييز بين الآيات المكية والآيات

المدنية ؟

هناك فوائد كثيرة منها :

- ظهور بلاغة القرآن لأن من البلاغة أن يستخدم الأسلوب المناسب

مع كل مخاطب.

- ومن فوائد معرفة المدني والمكي أيضا : ظهور حكمة الله عزوجل بمخاطبة كل بما يناسبه .

- وأيضا من فوائد معرفة المكي والمدني تطبيق هذه الأحكام على أحوال المسلمين ؛ فإن المسلمين تتفاوت أحوالهم ما بين زمان وآخر قوة وضعفا ، تكون الدولة قوية في زمان وتضعف في زمان آخر ، وبالتالي يختار المسلمون من الأحكام الشرعية ما يناسب حالهم ، فعند فوات دولة الإسلام بحيث يكون الناس المؤمنون يكون أفرادا لا دولة لهم ينظرون إلى أحكام المكي والآيات المكية ، وعند وجود دولة للإسلام ينظرون للآيات المدنية .

- كذلك من فوائد معرفة المدني والمكي تعويد الناس على الأخذ بالأهم فالأهم ، والتدرج في مخاطبة الناس بما يناسب أحوالهم .

- من فوائد معرفة المدني والمكي أيضا: مخاطبة كل بما يناسبه من جهة الأسلوب والطريقة، هل يخاطبون بالسهولة أو باللين أو نحو ذلك.

- كذلك عند معرفة التاريخ تتمكن من معرفة الناسخ من المنسوخ، الآيات التي يظن المجتهد أن بينها تعارضاً.

- من فوائد معرفة المكي والمدني أيضا : أن يكون المرء عارفا بمعاني

الآيات القرآنية ، فإنك إذا عرفت أن هذه الآية نزلت في مكة بسياق خاص عرفت معناها ، فإن فهم الأحوال المحيطة بالمخاطبين وقت نزول

الآيات يعين كثيرا على فهم النص ، ويمكن من إنزال ذلك النص محله .
فإن قال قائل: هل الأفضل للإنسان أن يختص بقراءة المكي أو بقراءة

المدني؟ أو الأفضل أن نُنوع في القراءة؟

فنعول: الأصل أن هذا القرآن يقرأ بكماله وأنه يحقق التوازن في النفس البشرية، لأنه مرة يكون بأسلوب سهل، ومرة يكون بأسلوب فيه قوة ومرة يتعرض للحجاج والمناقشة، ومرة يشتمل على الأحكام فيحقق التوازن في النفس.

لكن في بعض الأحوال قد يوجد عند الإنسان أسباب تقتضي أن يركز على أحد هذين النوعين، كأولئك الذين عندهم شبهات فمثل هؤلاء يشار لهم بالآيات المكية ليكثرُوا من قراءتها لتؤثر في نفوسهم. وهكذا أيضا من كان جاهلا وليس لديه معرفة بالأحكام الشرعية يشار له بقراءة الآيات المتعلقة بالأحكام، ومن هنا وردت مؤلفات تفسر أحد نوعي هذه الآيات مثال ذلك: المؤلفات التي تفسر آيات الأحكام مثل كتب أحكام القرآن للشافعي، للجصاص (23)، لابن العربي (24) هذه

(23) - أبو بكر، أحمد بن علي الرازي الجصاص، انتهت إليه رئاسة الحنفية ببغداد، (ت 370هـ). ويعد كتاب أحكام القرآن للجصاص من أهم مصادر الفقه الحنفي. طبع بتحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 1405هـ.

(24) - (ت 543هـ) وصاحبه هو العلامة أبو بكر، محمد بن عبد الله ابن العربي، القاضي المعافري الأندلسي الإشبيلي، حافظ من كبار فقهاء المالكية.

و كتاب أحكام القرآن لابن العربي المالكي من أهم كتب الأحكام وأشهرها، ويعتبر مرجعا مهما للتفسير الفقهي عند المالكية. طبع بتحقيق علي محمد الجاوي، بيروت: دار المعرفة.

اعتنت بالآيات التي تشتمل على أحكام وهي في غالبها آيات مدنية وما
ذاك إلا لأنهم أرادوا أن يخاطبوا المتعلمين المتفقهين .
بينما من أراد أن يخاطب غير المسلمين فإنه يأتي لهم بالآيات التي فيها
الحجج العقلية المشتملة على أعلى درجات الإقناع ليخاطبهم بها.
كهذا أيضا عندما يخاطب الإنسان العصاة ينتقي من الآيات ما يناسب
حاله ، نعم .

الحكمة من نزول القرآن الكريم

من تقسيم القرآن إلى مكّي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرداً. ولتزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها :

1- تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۗ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣ .

2- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئاً فشيئاً، لقوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ۗ ﴿١٠٦﴾ الإسراء: ١٠٦ .

3- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه ، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية ، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان .

4- التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال ، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه ، ألفوه ، وكان من الصعب عليهم أن يجابها بالمنع منه منعاً باتاً ، فترل في شأنه أولاً قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

نَفَعِيهَا ﴿ البقرة: ٢١٩ ﴾ فكان في هذه الآية هبة للنفوس لقبول تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئاً إثمه أكبر من نفعه .

ثم نزل ثانيا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ النساء: ٤٣ فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات ، ثم نزل ثالثا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ المائدة: ٩٠ ، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ المائدة: ٩١ ، ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فِان تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا عَلَيَّ رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ المائدة: ٩٢ ﴾ فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منها باتا في جميع الأوقات ، بعد أن هبت النفوس ، ثم مرنت على المنع منه في بعض الأوقات .

شرح مبحث : الحكمة من نزول القرآن الكريم

تقدم معنا في ما مضى أن نزول القرآن لم يكن في وقت واحد ، وأنه قد نزل القرآن مفرقا وأن الصواب في ذلك أن جبريل عليه السلام قد سمعه من الله عزوجل ، وأنه تكلم رب العزة والجلال به حقيقة بعد وقوع الوقائع ، وأن الله جل وعلا قد أمر جبريل عليه السلام بنقله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا مما لا إشكال فيه .

و قد قيل: إن لفظة الإنزال إذا جاء فعلها مشددا فإن المراد به الإنزال مفرقا، وأما إذا جاء مُسَهَّلًا فإن المراد به الإنزال مرة واحدة.

في مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ النساء: ١٣٦ يعني نزل مفرقا ، ﴿وَأَلْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ النساء: ١٣٦ سهَّلها يعني نزل في صحف .

ولهذا فوائد كثيرة ذكر منها المؤلف أربع فوائد:

– أولها : تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وتثبيتته من جهتين :

الجهة الأولى: لئلا يتمكن أعدائه من صده عن دين الله

بإلقاء الشبهات

عليه، فإنه إذا نزل القرآن مفرقا رسخت حججه وبياناته في

قلبه صلى الله

عليه وسلم .

و التثبيت الثاني: من جهة حفظه، فإنه إذا نزل مرة واحدة

يعجز عن حفظه،

بخلاف إذا نزل مفرقا.

- وهذا فيه إشارة إلى الفائدة الثانية تسهيل الحفظ ؛ فإنه إذا تفرق تجزأ في حفظه وبالتالي تمكن المرء من حفظه ، ومن هنا ينبغي بالإنسان عند حفظه للقرآن ألا يأخذ نصيبا كثيرا - في حفظه اليومي - من أجل أن يبقى ذلك الحفظ معه مع إكثار قراءة هذا الجزء في ذلك اليوم وإعادته مرة بعد أخرى ، ولذلك كان من شأن الصحابة أنهم يتدارسون العشر الآيات ويحفظونها ويعرفون ما فيها من العمل ولذلك بقي القرآن معهم وكان القرآن في نفوسهم .

- وهكذا أيضا من حكمة نزوله مفرقاً أن يسهل على الناس العمل به قال: ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ۝١٠٦ ﴾ الإسراء: ١٠٦ مشدد وذلك يريد به أنه فرق نزوله .

- هكذا أيضا ذكر المؤلف من فوائد إنزاله مفرقا تنشيط الهمم لتكون النفوس مستعدة لقبوله ، فإنك متى كنت متطلعا لشيء فإنه حينئذ تقبله نفسك وتفرح به، بخلاف ما إذا جاءك الشيء بدون أن تطلبه فإنك قد تزهد فيه ولو كان ثمينا.

- هكذا أيضا من فوائد نزول القرآن مفرقا التدرج في التشريع، وأضرب لهذا مثلا:

كان أهل الإسلام يتوجهون في صلواتهم إلى بيت المقدس فهي القبلة ، ثم نُسخت القبلة فجعلت إلى الكعبة وهذا حكم عظيم وشأن كبير فيه مفارقة لأهل الملل الأخرى ، فيه تغيير لوجهة الإنسان في صلاته ، فاحتاج

الناس في ذلك إلى أن يتدرج بهم ولذا إذا نظرت إلى أواخر الجزء الأول من سورة البقرة تجدها في تقرير هذا الحكم وتسهيله على النفوس من مثل قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْمِئَتْهَا ﴾ البقرة: ١٠٦ فهذا فيه تقريب وتمهيد للنفوس بأن النسخ وارد .

ثم بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ١١٥ ، ثم بعد ذلك بيان الرد على

اليهود وأنهم قد أخطئوا في عدد من المسائل ولذلك لا ينبغي أن نلتفت إلى اعتراضهم ، ثم بيان أن اليهود قد فارقوا ملة إبراهيم وأن هناك فرقا بين

ملة إبراهيم عليه السلام وطرائق اليهود ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ البقرة: ١٣٥ ، ثم بعد

ذلك ذكر اعتراض اليهود ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ البقرة: ١٤٢

، ثم بعد ذلك بين أن هذا الحكم قد يؤثر في النفوس الضعيفة وأن بعض الناس قد يكون تغيير القبلة سببا من أسباب ورود الشياطين عليه فتُضِلُّهُ عن سبيل الله .

وأجاب عن اعتراض : ماذا هو شأن أولئك الذين ماتوا قبل تحويل القبلة ﴿

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ ﴾ البقرة: ١٤٣ صلواتهم مسجلة ، ثم بين أن

أصحابا الملل الأخرى قد اختلفوا في جهة القبلة ، فإن اليهود لهم قبلة وهي بيت المقدس والنصارى لهم قبلة مغايرة وهي جهة المشرق ولذلك ذكر الله

عزوجل أن بعضهم لا يتبع قبلة بعضهم الآخر .
ثم ذكر الله عزوجل أن اليهود يعرفون الحق ومع ذلك يتركونه ، فحينئذ لا
تغتروا بمقاتلتهم ، ثم كرر الأمر بالتوجه إلى الكعبة في الصلوات ﴿ وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَأَوِّدْ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾
البقرة: ١٥٠ إلى غير ذلك من الأحكام التي نزلت تباعاً لتمهيد هذا الحكم
العظيم ألا وهو حكم نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، نعم .

ترتيب القرآن:

ترتيب القرآن: تلاوته تاليا بعضه بعضا حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفا في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: الله الحمد رب العالمين بدلا من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الفاتحة: ٢ .

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته ولا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن

الرحيم بدلا من: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ الفاتحة: ٣ - ٤ ، ففي

صحيح البخاري (1) أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان رضي

الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَقَّاتُ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً

لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴿٤٠﴾ البقرة: ٢٤٠ قد نسخها الآية

(1) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب (وَالَّذِينَ يُتَوَقَّاتُ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ

أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...) الآية حديث رقم (4530).

الأخرى يعني قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا لَا يَرْصَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ البقرة: ٢٣٤ وهذه قبلها في التلاوة قال : فلم تكتبها ؟ فقال عثمان رضي الله عنه : يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه .

وروي الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث عثمان رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يترل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء ، دعا بعض من كان يكتب ، فيقول ، ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا (2) النوع الثالث : ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف ، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبا وفي " صحيح المسلم " (3) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، وروي البخاري (4) تعليقا عن الأحنف : أنه قرأ في الأولى بالكهف ، وفي الثانية بيوسف أ ويوسف أو يونس ، وذكر أن صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما .

(2) أحمد (399) وأبو داود (786)، والنسائي في السنن الكبرى (8007) والترمذي (3086)

(3) أخرجه مسلم كتاب الصلاة المسافرين باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل حديث رقم (772).

(4) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب الجمع بين السورتين في الركعة ..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " تجور قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة. ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سنة الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب أتباعها " أهـ.

شرح مبحث: ترتيب القرآن:

ذكر المؤلف هنا ما يتعلق بترتيب الآيات والسور، والمراد بترتيب القرآن عدم تقديم شيء متأخر من آيات القرآن أو سوره على المتقدم منها سواء كان في تلاوة الإنسان أو في كتابته، سواء كان في الصلاة أو في غيره. وترتيب القرآن على أنواع :

1- أولها ترتيب الكلمات والحروف : فهذا واجب ولا يجوز

للإنسان أن يترك هذا الترتيب ويأثم من تركه ، وذلك لأن التغيير في ترتيب الحروف والكلمات يغير في المعنى ، فإن تقديم الفاعل أو تقديم المفعول أو تقديم الفعل أو تقديم المتعلق من جار و مجرور أو ظرف يغير المعنى ، فإن عادة العربي في كلامه أن يقدم ما هو مقصود بالكلام ، ثم إن من عادته أنه إذا قدم شيئاً على شيء فله فائدة من مثل فائدة القصر فمثلاً قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة: هـ فإن تقديم المفعول ﴿إِيَّاكَ﴾ يفيد قصر الحكم . وهكذا أيضا في الآيات التي فيها تشابه يجد الإنسان أن تقديم بعض الحروف أو بعض الكلمات على بعض له معنى وله مقصود ويناسب سياق تلك الآيات، من أمثلة ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ المائدة: ٣ وفي مواطن ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ﴾ البقرة: ١٧٣ لماذا ؟ لأن في مواطن يكون المراد بيان حكم اللحوم فيقدم ما يتعلق بها، وفي مواطن أخرى يكون المراد تقرير حكم المعتقد وبيان أحكام التحليل والتحريم فيقدم ما يناسبها.

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ

﴿ الإسراء: ٣١ في الآية الثانية : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

نَزَرْنَاكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ الأنعام: ١٥١ فهنا أتى في كل سياق بما يناسبه ؛ ففي

الأول لأن الناس الذين يقتلون أولادهم على صنفين :

- صنف يقتل ولده من أجل فقر حاضر، فهو قتله من أجل نفسه

ولذلك قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَزَرْنَاكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

الأنعام: ١٥١ قدم المخاطب .

- وفي الموطن الثاني قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ يعني

تحشون من الفقر فيما يأتي ، بأن لا تتمكنوا من النفقة على أبنائكم

﴿ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَزَرْنَاكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ الإسراء: ٣١ .

فاستعمل في كل سياق ما يناسبه ، وبالتالي فإن تغيير ترتيب الكلمات أو

الحروف يؤدي إلى معنى مغاير لمعنى الآيات القرآنية .

2- ومثل ذلك أيضا : ترتيب الآيات فلا يجوز لإنسان أن يقدم آية

على آية في قراءة في سياق واحد ، وذلك لأن ترتيب الآيات يؤدي معنى ،

وعند تغيير الترتيب يتشكل معنى آخر قد يكون غير مقصود ، بل قد

يؤدي إلى مضادة المعنى الأول ، ولذلك يؤتى في الآيات مرة بأسلوب

إعطاء كل جزئية حكمها معها ، ومرة يؤتى بأسلوب الإتيان بالأفراد ثم

إعطاء حكم كل بعد ذكر الجميع ، ومرة يؤتى بتقديم وتأخير مما يعرف

باللف والنشر بحيث يكون المذكور أولا هو المحكوم عليه أخيرا والمذكور

أخيرا هو المحكوم عليه أولا .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في ذكر الليل والنهار: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ القصص: ٧٣ ، وفي مرات يأتي بالليل ويذكر فائدته بعده ثم يأتي بالنهار ويذكر فائدته بعده . وما ذاك إلا لكون هذه الآية في سياق معين فناسب مراعاة ذلك السياق ، وأضرب لهذا مثلا : في قوله تعالى: ﴿ سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ النحل: ٨١ فإن السرايل أنواع الثياب ، أتى بالسرايل التي تقي الحر في آخر سورة النحل لأن السرايل التي تقي الحر تكملة فناسبت أن تكون في آخر السورة ، بينما الثياب التي يحتاج لها في الدفء ذكرها في الأول ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ ﴾ النحل: ٥ .

3- النوع الثالث الترتيب بين السور : الترتيب بين السور ما

حكمه ؟ وهل هو واجب ؟ ومن أين ثبت ؟

اختلف أهل العلم في الترتيب بين السور: هل مبدأه اجتهاد ؟ أو مبدأه الوحي ؟

فقال طائفة: بل مبدأ ترتيب السور اجتهادي لأنه وقع اختلاف

بين الصحابة في ترتيب هذه السور، فدل ذلك على أن ترتيبها اجتهادي.

وقال آخرون : بل ترتيبها بوحى ؛ وذلك لأن القرآن وحي من

الله فكما تكون ألفاظه بوحى يكون ترتيبه سورته بوحى أيضا ، واستدلوا

على ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم عرض القرآن على جبريل فكان

يعرضه في كل سنة مرة ، حتى جاء في السنة التي توفي فيها فعرضه مرتين ،

وهذا العرض إنما يكون على ترتيب معين ، هذا الترتيب هو المنقول لنا

وهو الباقي معنا ، فدل هذا على أن هذا الترتيب بوحى .
 والمؤلف يميل إلى أنه بالاجتهاد واستدل بحديث حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران (25).
 وأصحاب القول الآخر يقولون: هذه القراءة كانت قبل استقرار ترتيب السور، ومن هنا فإنه لا يصح أن يستدل بهذا الحديث.
 ولعل القول بأن ترتيبها بوحى أظهر ، فإن هذا القرآن وحى من الله وهو كلام رب العزة والجلال ولا بد أن يكون مرتبا في عهد النبوة لأن الناس يحفظونه والناس يكتبونه ، وحينئذ دل هذا على أن الترتيب المقرر هذا هو الترتيب المنقول بالتواتر إلينا .

ثم ننتقل بعد ذلك إلى مسألة هل هذا الترتيب واجب أو ليس بواجب ؟
 وهل يسوغ مخالفته أو لا ؟

فقال طائفة : بأنه لا يكون واجبا وهو ظاهر كلام المؤلف ، ونقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، واستدل على هذا بأن ترتيب السور لم يثبت بوحى وإنما ثبت باجتهاد ، فيكون الترتيب بين السور غير واجب .
و القول الآخر: بأن الترتيب بين السور من الواجبات وذلك لعدد من الأدلة:

* أولها: أن إجماع الأمة قد انعقد على هذا الترتيب فمخالفته

(25) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده : مسند الأنصار ، حديث حذيفة بن البيان عن النبي صلى الله عليه

وسلم - حديث: 22810 .

مخالفة الإجماع.

* والدليل الثاني قالوا: إن الأظهر أن هذا الترتيب منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم.

* استدلوا على ذلك ثالثاً : بأنه لو فُتح باب ترك الترتيب بين السور لأدى ذلك إلى اختلاف نسخ القرآن وهذا يخالف مقصود الشارع في حفظ هذا الكتاب .

* قالوا: وقد وقع إجماع الخلفاء الراشدين ومن في زمانهم على هذا الترتيب فيكون واجبا.

وهذا ما يشعر به كلام شيخ الإسلام في آخره حيث قال : وقد دل الحديث - يعني حديث العرباض بن سارية : [فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ] (26) على أن لهم سنة يعني طريقة مُتَّبعة يجب اتباعها ، فظاهر هذا أنه يرى وجوب التمسك بهذا الترتيب .

ويترتب على هذا أن من جاءنا وقال : سأقوم بترتيب القرآن بحسب نزوله

(26) - أخرجه أبو داود : كتاب السنة ، باب في لزوم السنة - حديث: 4012 ، وابن ماجه : المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين - حديث: 42 . وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب وقال : رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه و ابن حبان في صحيحه وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

قوله عضوا عليها بالنواجذ أي اجتهدوا على السنة والزموها واحرصوا عليها كما يلزم العاض على الشيء بنواجذه خوفاً من ذهابه وتفلقته . والنواجذ بالنون والجيم والذال المعجمة هي الأنياب وقيل الأضراس .

. قلنا له : أنت مخطئ في هذا لوجهين :

1- الوجه الأول : أن الاختلاف في وقت الترتيل ليس منحصرًا بين

السور ، بل آيات السورة الواحدة تختلف في وقت نزولها ، ومن ثم أنت
لن تتمكن من الترتيب بين السور بحسب وقت النزول .

2- والوجه الثاني : أن وقت النزول محل اجتهاد والناس يتفاوتون فيه ،

ومن ثم يجعل هذا القرآن محلاً للأخذ والرد والاختلاف والتنازع ، وهذا
مما يتنافى مع مقصود الشارع .

و لذلك فإن الصواب أنه لا يجوز كتابة الآيات القرآنية ولا السور
القرآنية على غير الترتيب المعهود، إلا إذا أراد الإنسان كتابة سور ليس
على جهة كونها المصحف تاما.

ومن هنا أيضا نقول : بأنه في قراءة الليل يحسن أن يحافظ الإنسان على
ترتيب سور القرآن وألا يقدم سورة على غيرها ، أما بالنسبة لما يفعله
بعضهم من جمع وكتابة بعض السور التي ورد في فضائلها أحاديث خاصة
إما صحيحة وإما ضعيفة ، بحيث تجد أن بعضهم يطبع نشرة أو كتابا فيه
سور من القرآن لفضلها ، تجد فيه مثلا سور الكهف ، تجد فيه سورة
تبارك سورة الواقعة سورة القيامة سورة الإخلاص ونحو ذلك ، فهل هذا
الفعل من الأمور السائغة أو المستحسنة أو ليس كذلك ؟
نقول: الأظهر أنه ليس من الأمور المستحسنة لعدد من الأمور:

* أولها: أن ربط الناس بالمصحف خير من ربطهم بهذه الكتيبات التي لا تحتوي إلا على سور خاصة

* والأمر الثاني : أن مثل هذا يؤدي بالناس إلى هجر غير هذه السور ومن ثمَّ يهجرون ختم القرآن .

* والأمر الثالث : أن هذا يؤدي إلى امتهان هذه الآيات ، فإن طبعها يجعل الناس لا يرون أن لها من الحرمة والمكانة ما للمصحف ، ومن ثمَّ تُمتهن وتلقى في مواطن غير مناسبة لها .

وهكذا أيضا بالنسبة لوضع سور القرآن في الآلات الحديثة سواء في الجوال أو في أجهزة الكمبيوتر أو نحوها ، يحسن أن يقتصر في وضعها على ترتيب القرآن على وفق ما هو منقول على الصحيح عن النبي **صلى الله عليه وسلم** ووقع عليه إجماع الأمة في عصورها المتتابعة .

كتابة القرآن وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى : في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة ، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتين ووسائل الكتابة ، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها ، أو كتبها فيما تيسر له من عُسب النخل ، ورقاع الجلود ، ولخاف الحجارة ، وكسر الأكتاف وكان القراء عددا كبيرا.

ففي " صحيح البخاري " (127[1]) عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سبعين رجلا يقال لهم : القراءة ، فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم ، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي خليفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبي الدرداء رضي الله عنهم .

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة. وسببه أنه قتل في وقعة اليمامة عدد كبير من القراء منهم ، سالم

(127[1]) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب العون بالمدد حديث رقم (3064).

مولى أبي حذيفة ، أحد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن منهم .

فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي صحيح البخاري " (2) أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة ، فتوقف تورعا ، فلم يزل عمر يراجع حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك ، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه ، وعنده عمر فقال له أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، قال : فتتبع القرآن أجمعه من العُسب واللخاف وصدور الرجال ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما . رواه البخاري موصولا .

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدوه من حسناته، حتى قال على رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمه الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.

المرحلة الثالثة : في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين ، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة

(2) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم)

، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد ؛
لئلا يختلف الناس ، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا .

ففي " صحيح البخاري " (3) أن حذيفة بن اليمان قد على عثمان من
فتح أرمينية وأذربيجان ، وقد أفرعه اختلافهم في القراءة ، فقال : أمير
المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود
والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة ، ففعلت ، فأمر زيد بن ثابت ،
وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن
هشام فنسخوها في المصاحف . وكان زيد بن ثابت أنصاريًا والثلاثة
قرشيين - وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد
بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ؛ فإنما نزل بلسانهم ،
ففعّلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى
حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من
القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله
عنهم ، لما روي ابن أبي داود (1) عن علي رضي الله عنه أنه قال : والله

(3) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن حديث رقم (4987).

(1) أخرجه الخطيب في كتاب فضائل القرآن للوصل المدرج 2 / 954 ؛ وفي الإسناد المحفوظ (محمد
بن أبان الجعفي) علل الدار قطني 3 / 229 - 230 ، قال ابن معين (ضعيف 9 الجرح والتعديل للرازي 7
/ 200 أخرجه أبي داود في كتاب المصاحف ص 22 أخرجه أبي داود في كتاب المصاحف ص 12 .

ما فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا ، قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا ، فنعم ما رأيت .

وقال مصعب بن سعد : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك ، أو قال : لم ينكر ذلك منهم أحد ، وهو من حسنان أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها ، وكانت مكملة لجمع خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنه .

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر الله عنه تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف ، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد ؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد .

و أم الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، تفشو البغضاء، والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقا عليه بين المسلمين متواترا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبت به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين. فله الحمد لله رب السموات ورب الأرض رب العالمين .

شرح مبحث : كتابة القرآن وجمعه

ذكر المؤلف في هذا المبحث ما يتعلق بكتابة القرآن ، والله جل وعلا قد وصف القرآن بأنه كتاب فقال سبحانه: ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لِارْتَبِ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢٠ ﴾ البقرة: ٢ في آيات كثيرة ، فدل هذا على أن الله عزوجل قد علم أن هذا القرآن لا يقتصر على تلاوته وقراءته ، وأنه سيكتب وسيداوله الناس بالكتابة ، ولذلك لما علم النبي صلى الله عليه وسلم هذا ورأى أن الكتابة تحفظ هذا الكتاب لأن الله عزوجل قد تكفل بحفظ القرآن كما في قوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١ ﴾ الحجر: ٩ .

وحفظ القرآن يكون بوسائل متعددة منها: كتابة هذا القرآن وتدوينه، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تدوين القرآن ، وكان قد اتخذ جماعة من الصحابة كتابا للوحي ، وقد ألفت مؤلفات في رصد الصحابة الذين كانوا يكتبون الوحي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل كتاب الوحي من الصحابة الأمناء الموثوقين ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقتصر في إملاء القرآن على واحد من الصحابة بل يملئه على جماعة من الصحابة ، وكانوا يكتبونه بما ييسر لديهم من الوسائل ومما يكتب عليه من الرقاع واللخاف والعُسب ونحو ذلك (28).

والقرآن محفوظ في عهد النبوة بترتيبه هذا كما تقدم معنا في الفصل السابق

(28) - ينظر في ذلك : دلائل النبوة للبيهقي : جماع أبواب غزوة تبوك ، جماع أبواب كيفية نزول الوحي

على رسول الله صلى الله عليه - باب ما جاء في تأليف القرآن ، حديث: 3067 .

، فترتيبه ليس فيه أي إشكال ، ومع الكتابة كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يهتمون بحفظه وقد حفظه جماعات كثيرة ، حفظ القرآن جماعات كثيرة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم صغارا وكبارا ، منهم من يحفظه كله ومنهم من يحفظ جزءا كبيرا منه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل التفاوت بين الناس بحسب حفظهم للقرآن ، فإذا أراد أن يؤمر على سرية سألمهم من أكثرهم قرآنا ؟ من الحافظ لسورة البقرة ؟ فيقدمه على غيره في إمرة السرايا.

و هكذا عند قبر الموتى كان صلى الله عليه وسلم يسأل عن الموتى أيهم أكثر أخذًا للقرآن ومن ثمَّ يقدمه على غيره (29).

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله يختار حَفَظَةَ كتابه ، وفي إمامة الناس يختار حَفَظَةَ كتابه ولذا قال : [يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله] (30)، ومما يدخل في القراءة حفظ هذا الكتاب .

فالمقصود أن القرآن في عهد النبوة كان محفوظا لا إشكال فيه ، كان محفوظا في الصدور محفوظا بالكتابة محفوظا بحفظ الله عز وجل له . وذكر المؤلف حديث أنس في بعث النبي صلى الله عليه وسلم القراء إلى قبائل من العرب : فالمقصود أن الصحابة الذين كانوا يحفظون القرآن كثر ، وأما ما ورد في بعض الأحاديث من تسمية عدد قليل أنهم حفظة (31)

(29) - صحيح البخاري - كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهيد - حديث: 1291 .

(30) - أخرجه مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب من أحق بالإمامة - حديث: 1113 .

(31) - قال الإمام مسلم كما في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أبي بن

فالمراد بذلك في جماعة محصورين وليس على العموم ، فإنه قد ورد أن من حفظ القرآن أربعة ، لكن إذا تأملت وجدت أن هؤلاء الأربعة أراد بهم المتكلم بهذا جماعته من الأنصار ولم يرد به عموم الصحابة رضوان الله عليهم ، ولذا نستفيد من هذا أن حفظ القرآن ييسره الله عزوجل حتى لكبار السن وليس حفظ القرآن خاصا بالصغار دون الكبار .

المقصود أنه قد كان هناك كتابة للقرآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم في أول عهده يمنع الصحابة من كتابة الحديث النبوي لماذا؟ من أجل ألا تختلط بالكتاب تختلط كتابة الأحاديث بكتابة القرآن، فلما وثق من ذلك وعرف أن القرآن قد حفظه الناس أذن بكتابة الأحاديث النبوية.

استمر الناس على ذلك فلما جاء عهد أبي بكر الصديق وارتدت العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم تنادى الصحابة رضوان الله عليهم لقتال المرتدين تقربا لله جل وعلا حتى قُتل منهم أناس كثير بالآلاف ، وكان من هؤلاء كثير من حفظة كتاب الله جل وعلا منهم سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما .

ومن هنا رأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يوجد عنده نسخة متكاملة مكتوبة يرجع إليها ، مع أن كثيرا منهم يحفظ القرآن بترتيبه المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لكنه أراد أن توجد نسخة متكاملة

كعب - حديث: 4612 : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، قال : سمعت أنسا ، يقول : " جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أربعة ، كلهم من الأنصار : معاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد " . قال قتادة : قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي .

من القرآن العظيم موجودة لديه ، ولذلك أمر بكتابة المصحف .
 جمع الصحابة وشاورهم في ذلك فأشار عمر رضي الله عنه على أبي بكر
 بكتابة المصحف فتوقف في ذلك، يقول: هذا أمر لم يفعله النبي صلى الله
 عليه وسلم فكيف أفعله ؟ ثم بعد ذلك أرجع النظر وأعاده وكلمه بعض
 الصحابة في هذا فشرح الله صدر أبي بكر الصديق وعلم أن هذه وسيلة
 لتحقيق مقصد شرعي ، فإن من المقاصد الشرعية حفظ القرآن ، ومن
 وسيلة تحقيق هذا المقصد أن يكتب القرآن كاملا ، ولذلك أمر أبو بكر
 الصديق زيد بن ثابت ومعه من معه بكتابة المصحف ، ولم ينكر أحد من
 الصحابة على أبي بكر هذا وكان لا يكتب شيئا من القرآن ولو كان هو
 يحفظه إلا بعد أن يوجد عنده شهود يشهدون بهذا ، ولهذا جاء في الحديث
 أنه لما جاء لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ
 عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٨)
 التوبة: ١٢٨ يعني لم يجدوا هذه الآية إلا مع أحد الصحابة ، يعني لم يجدوها
 مكتوبة وإلا فهم يحفظونها ، والصحابة كثير من الصحابة يحفظونها لكن لم
 يجدوها مكتوبة إلا عند أحد الصحابة (32)، وكتبوا المصحف وحفظوا
 هذه النسخة . وهناك كتابات أخرى كتبها كل واحد من الصحابة يكتب
 مصحفا بنفسه .

إذن عندنا أصبح مصحف أصل عند أبي بكر الصديق ، وهناك مصاحف

(32) - أخرجه البخاري : كتاب تفسير القرآن ، سورة البقرة - باب قوله : لقد جاءكم رسول من

أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حديث: 4410 .

تابعة كل واحد من الصحابة عنده مصحف .

بعد ذلك مصاحف الصحابة أصبح الناس ينقلون منها ويكتبون منها ،
وتعرفون أن الكتابة ليست متحدة لأن هناك مرة يكتب الرحمان بألف بعد
الميم ومرة تكتب بدون ألف ، وإبراهيم لها طرائق في كتابتها مرة تكتب
بياء بعد الهاء ومرة بدونها وهكذا ، فكانت هذه المصاحف مختلفة في رسم
الكتابة .

ثم إن النُّسَاح قد يحصل منهم نوع من الزلل أو الخطأ البسيط أو يحصل
منهم إسقاط لفظة أو نحو هذا من مصحف إلى مصحف حتى كثرت
المصاحف وأصبحت بأيدي الناس وأصبح فيها نوع اختلافات ، بعض
هذه الاختلافات من النسخ كما تقدم وبعضها بسبب الاختلاف في
القراءة .

وبقي المصحف الإمام عند أبي بكر ولما توفي أبو بكر الصديق أخذه عمر
ولما توفي عمر رضي الله عنه أخذته ابنته حفصة بنت عمر رضي الله عنها.
لما جاء في عهد عثمان رضي الله عنه ومضت سنتان من خلافته ، جاء
حذيفة بن اليمان وعرض على عثمان مسألة المصاحف واختلاف هذه
المصاحف وتنوعها وكون كل واحد يكتب مصحفاً مما قد يورث اختلافاً
في رسم الكلمات عند كتابة المصحف ، وخشي أن يكون هذا سبباً من
أسباب الاختلاف والتنازع وجاء إلى عثمان فقال : يا أمير المؤمنين أدرك
هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فطلب
عثمان رضي الله عنه المصحف الذي عند حفصة ثم كتب مصاحف
للأمصار بحيث يكون في كل مصر مصحف إمام يرجع إليه عند

الاختلاف ، إذا وُجِدَ اختلاف بين المصاحف يرجعون إلى هذه المصاحف التي يعتبرونها أئمة لغيرها من المصاحف ، فأصبحت مرجعا يرجع إليه عند التنازع والاختلاف (33).

فبذلك نعلم أن مقصود أبي بكر الصديق أن يوجد نسخة تكون حفظا للقرآن، وأن مقصد عثمان رضي الله عنه أن يوجد مصاحف في كل بلد تكون هذه المصاحف مرجعا لهم عند الاختلاف.

وهذه المصاحف - كما تقدم - كانت موجودة من عهد النبوة ، ولذلك لما جاء في كتاب عمرو بن حزم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كتب كتابا كتب فيه : [وأن لا يمس المصحف إلا طاهر] (34) فدل هذا على أن المصاحف كانت موجودة في عهد النبوة .

بعد ذلك احتاج الناس إلى تشكيل المصحف ووضع الحركات عليه ، وذلك أنه في عهد علي أو بعده سمع قارئاً يقرأ قوله جل وعلا : أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فخشى أن يقع الاختلاف بسبب أمثال هذا وذلك أنه وجد في الإسلام من لم يتعلم القرآن باللفظ، ووجد في أهل

(33) - أنظر : صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن - حديث: 4707 ، و سنن الترمذي : الذبائح ، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب : ومن سورة التوبة ، حديث: 3112 ، والمعجم الكبير للطبراني - باب الزاي من اسمه زيد ، زيد بن ثابت الأنصاري يكنى أبا سعيد ويقال أبو خارجة - عبيد بن السباق ، حديث: 4767 .

(34) - أخرجه مالك في الموطأ : كتاب القرآن ، باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن - حديث: 470 ، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع : 7780 .

الإسلام من لم يشاهد تزييل هذا الكتاب ، ولذلك تحتاج إلى وضع الحركات على الكلمات من أجل أن يتعد الخلاف بينهم أو مخالفة القراءة الصحيحة .

ثم بعد ذلك احتاجوا إلى أن يُنقَطُوا الحروف فُنقَطت الحروف . ثم بعد ذلك أصبح الناس يتداولون هذه المصاحف وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون على ألا يدخلوا في المصحف شيئا معه لئلا يلتبس به ، فلا يكتبون مع المصحف تفسيرا ولا يكتبون عليه شيئا من التعليقات ، بل كانوا يتورعون من وضع العشور والأرباع في المصاحف لئلا تدخل فيه .

ثم بعد ذلك احتاج الناس إلى تقسيم هذا القرآن ، وذلك أن أهل الزمان الأول كانوا يقسمونه سبعة أقسام بحسب سوره كما تقدم ، لكن من بعدهم احتاج إلى تقسيمه إلى ثلاثين قسما لتكون وردا يوميا للإنسان الذي يريد أن يقرأ القرآن في شهر ، فقسموا هذه الأجزاء الثلاثين التي تجدونها .

والملاحظ للأعشار والأرباع والأثمان الموجودة يجد أن كُتِبَ هذه العلامات حرصوا على التنبيه على مواطن التشابه ؛ إذا كان هناك آية تشابه آية في موطن آخر حرصوا أن يجعلوها موطن موقف لربع أو ثمن أو نحو ذلك ، ولذلك قد تجدون أن الأرباع و الأثمان مرة تطول ومرة تقصر بسبب أنهم لاحظوا هذا المعنى وهو وجود التشابه بين آيات القرآن ليكون القارئ عندما يجد هذه العلامة مستشعرا الفرق بين هذه الآية وبين الآية الأخرى التي قد تشابهها في بعض الألفاظ .

ثم بعد ذلك تناقل الناس هذه المصاحف ، وقبل قرابة أربعمئة سنة وجدت المطابع فكتبوا المصحف بهذه المطابع ونسقوه بها واهتموا به ، ثم بعد ذلك في أزماننا الحاضرة وجدت مسجلات الصوت فسُجِّل القرآن بأصوات العديد من القراء ، وبعد ذلك وجدت آلات حديثة أيضا لتسجيل المصحف بالتسجيل الرقمي فكتبت في الجوات وفي آلات الكمبيوتر والحاسب الآلي ونفع الله بها كثيرا .

ولكن الذي يظهر أن هذه الجوات لا تعد مصحفا ، ومن ثم لا يشترط لها الطهارة ولا حرج على الإنسان في أن يدخل بها في مواطن قضاء الحاجة إذا لم تكن هذه الآلات مكشوفة على الآيات القرآنية ، وذلك لأنها ليست بمصاحف لأنه لا يسمى بهذا الاسم إلا إذا كان هناك صحف وهذا ليس فيه صحف .

و مما يتعلق بهذا ما ورد عن عائشة رضي الله عنه أنها أمرت غلاما لها أن يصلي بها وأن يحمل المصحف في صلاته - يعني صلاة التراويح - فدل هذا على أنهم كانوا يحملون المصاحف في الزمان الأول.

ولا شك أن حفظ القرآن من الأمور المطلوبة شرعا ولذلك قال العلماء بأن حفظ القرآن من فروض الكفايات ، ويجب على الأمة في كل زمان أن يكون فيها حفظة لكتاب الله جل وعلا ، وقد قال الله جل وعلا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت: ٤٩ فدل هذا على أنه لا بد أن يكون في الأمة حفظة لكتاب الله جل وعلا .

والله سبحانه قد حفظ هذا الكتاب من الضياع بوسائل شتى منها التدوين

ومنها وجود الدافع في نفوس الناس لحفظ هذا الكتاب ، هذا ما يتعلق
بكتابة المصحف .

التفسير

التفسير لغة : من الفسر ، وهو : الكشف عن المغطى .

وفي الاصطلاح . بيان معاني القرآن الكريم .

وتعلم التفسير واجب لقوله تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٤٦) ص: ٢٩ ولقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُمِرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ (٤٤) محمد: ٢٤ .

وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها.

و التدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فأتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها. ولأنه لا يمكن الاتعاض بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

و كان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذي كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، لم يجاوزوها ، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا .

قال الشيخ الإسلام ابن تيمية : والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ، ولا يستشروه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم ، وبه نجاحهم وسعادتهم وقيام دينهم وديانهم .
ويجب على أهل العلم ، أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ آل عمران : ١٨٧ ، وتبيين الكتاب للناس شامل لتبين ألفاظه ومعانيه ، فيكون تفسير القرآن ، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه .

والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة ، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله ؛ ليعبد الله بها على بصيره .

الواجب على المسلم في تفسير القرآن :

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى ، شاهد عليه بما أرى بد من كلامه فيكون

معظمًا لهذه الشهادة خائفًا من أن يقول على الله بلا علم ، فيقع فيما حرم الله ، فيخزي بذلك يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ الأعراف: ٣٣ ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ الزمر: ٦٠ .

شرح مبحث التفسير

ذكر المؤلف في هذا الفصل ما يتعلق بتفسير القرآن ، وأوضح أن المراد بتفسير القرآن هو بيان معاني كلام الله وبيان مراده جل وعلا من هذا الكتاب .

وأعمال الناس فيما يتعلق بفهم القرآن على نوعين :

- النوع الأول : فهم القرآن وتدبره وهذا يجب على الإنسان أن يعرف منه ما يقيم به المسائل المتعلقة به ، ولا يجوز للإنسان أن يعرض عن كتاب الله ، فالإعراض عن كتاب الله من أسباب العذاب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ طه: ١٢٤ ، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ السجدة: ٢٢ ، كما قال تعالى: ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِقُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٧ أي يعرضون ، ومن أنواع الإعراض عن الكتاب الإعراض عن تدبر معانيه ، ولذلك كان تدبر معاني القرآن وتفهم هذه الآيات القرآنية من الواجبات ، ويدلك على وجوبه أنه يترتب عليه عمل لأنه هناك أمر ونهي في هذا القرآن وهناك حجج ، ولا يتمكن الإنسان من العمل به إلا بفهمه ، ومن القواعد أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولا يمكن العمل بالكتاب إلا بفهمه فيكون فهمه من الواجبات .

ويدلك على ذلك - على وجوب تفهم القرآن - أن هذا الكتاب هو كلام رب العزة والجلال أنزله الله للبشر ، فقد أنزل الله هذا الكتاب لكل

واحد منا ، ومن مقتضى ذلك فهم هذا الكلام الذي أنزله الله إلينا ، فلو أرسل مرسل رسالة إلى غيره وجب أو لتعين على المرسل إليه فهم هذه الرسالة ومعرفة ما فيها خصوصا إذا كان ممن له أمرٌ عليه كوالد أو صاحب ولاية ، فكيف إذا كان هذا من رب العزة والجلال ؟ ثم إن هذا الكتاب قد نص الله على أنه إنما أنزل من أجل تدبر آياته ليعمل بها ، كما في قوله جل وعلا: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ ص: ٢٩ واللام هنا لام التعليل يعني المعنى والعلة من إنزال الكتاب وجعل هذا الكتاب مباركا أن يتدبر العباد آيات هذا الكتاب. ويدلُّك على وجوب تدبر الكتاب أن الله جعل هذا الكتاب نورا وبرهانا وخيرا وصلاحا، ولا يمكن تحصيل هذه المعاني من الكتاب إلا بفهمه، فكان فهمه وتدبره من الواجبات.

ومن المعلوم أن النجاة من العذاب في الآخرة بالعمل بشريعة الإسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥ ، ولا يمكن للإنسان أن يتصف بصفة الإسلام إلا بعمله بهذا الكتاب ، ولا يتمكن من العمل به إلا بتدبره . فهذه أدلة تدل على وجوب تدبر القرآن .

يبقى عندنا الكلام في تفسير القرآن؛ المراد بتفسير القرآن شرح معاني القرآن للآخرين، هذا يقال له تفسير.

ما حكم تفسير القرآن ؟

نقول : هذا من بيان العلم وبيان العلم من الواجبات على العلماء ، لأن الله عزوجل قد أخذ الميثاق على العلماء أن يبينوا هذا الكتاب وهذا الدين ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١٨٧ ، ومن أنواع البيان تفسير هذا القرآن ، وبذلك على ذلك أن الله عزوجل قد حرم كتم العلم الذي يحتاج إليه الناس كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَولئك يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾ البقرة: ١٥٩ ، فترك تفسير القرآن بالنسبة للعلماء مع حاجة الناس إلى فهم القرآن هذا كتم للعلم ، وتزداد درجة وجوب تفسير القرآن عند فشو الجهل وانتشاره ، وفي أزماننا هذه من أكثر الأزمان فشوا للجهل ، فالوقائع التي تقع للناس كثيرة متعددة وما من واقعة تقع للناس إلا وفيها آية أو آيات من هذا الكتاب ، وكل ما تسمعون به من وقائع وحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أو الأسرة أو المجتمع أو الدول فإن الكتاب قد اشتمل على بيان أحكامها الشرعية مما لا يدع مجالاً لاتباع الناس لغير الشريعة ، ولكن معرفة الحكم الشرعي في هذه الوقائع قريب وذلك لأن تفسير هذا القرآن والبحث عن آيات القرآن المتعلقة بهذه الوقائع قليل نادر ، وهذا من تقصير العلماء ولذلك قال جل وعلا: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ النساء: ٨٣ ، ما معنى يستنبطونه ؟ أي يستخرجون الحكم الشرعي في هذه الواقعة التي تحدث

للناس . وقد قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ النحل: ٨٩

فهذا القرآن فيه حُكم جميع الوقائع التي يحتاج إليها الناس .
ومن هنا لا يجوز لعالم من علماء الشريعة أن يتكلم في وقائع الناس بحسب ما يراه بهواه أو بعقله المجرد ، فإن هذا من القول على الله بلا علم ، بل الواجب إرجاع وقائع الناس إلى الكتاب والسنة ، وإذا أخذت وقائع الناس بمرئيات الناس المجردة فإنه حينئذ يصبح العالم مماثلاً لغيره ، وأما إذا تمَّ إرجاع وقائع الناس إلى أدلة الكتاب والسنة فهذا يمتاز به علماء الشريعة ، وما حل بالناس من نكسات أو مصائب إلا بسبب البعد عن الكتاب والسنة ، ويدلك على ذلك أنه لا تحصل مصالح الخلق إلا بتحكيم هذا الكتاب ، ولا يمكن للناس أن يُحكّموه على وقائعهم إلا إذا قام علماء الشريعة بتفسيره وإيضاح معانيه ، فإن الله قد أخبر أن هذه الشريعة رحمة وأنها خير وأنها صلاح وأنها سبب للسعادة ، ولا يكون ذلك إلا بفهم هذا الكتاب ، ولا يحصل الفهم بالنسبة لعوام إلا بتفسير العلماء للآيات القرآنية .

ويدلك على أهمية تفسير القرآن ووجوبه وتعين تزييله على وقائع الناس بالنسبة للعلماء أن الله قد أمر بالرجوع إلى الكتاب والسنة خصوصا عند التنازع والاختلاف كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠ ، وكما قال جل وعلا: ﴿ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ النساء: ٥٩ .

و لا يمكن أن نعيد مواطن النزاع إلى الكتاب والسنة إلا إذا فهمناهما

وعرفنا مراد الله بهما، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أربعة أقسام:

- منها ما يعرفه كل عارف باللغة، فهذا يشترك الناس في فهمه ومعرفة المراد به، فهذه السماء وهذه الأرض يشترك الناس في فهم معانيها.
- وهناك كلمات لغوية يفهمها من عرف اللغة.
- وهناك اصطلاحات شرعية لا تعرف إلا بمعرفة مقصود الشارع بدليل من الكتاب والسنة، عندما يأتي لفظ الصلاة لا يصح أن يفهمه الإنسان بذهن مجرد ولا من لغة العرب، وإنما يفهمه بحسب الطريقة الشرعية والفهم الشرعي الذي يعرفه علماء الشريعة.
- وهناك شيء من معاني الكتاب استأثر الله بعلمه؛ فتكون للفظه وجهان ما يحتاج إليه الناس يتم إيضاحه وبيانه وما لا يحتاج إليه الناس يستأثر الله بعلمه، ومن أمثلة ذلك: آيات الصفات معانيها تعرف من لغة العرب، لكن كصفات هذه الصفات هذا مما استأثر الله جل وعلا بعلمه. وتفسير القرآن الذي نحتاج إليه لا نتمكن من الوصول إليه إلا بقراءة هذا القرآن، لذلك فإن من أهم مقومات تفسير القرآن إكثار العبد من قراءة القرآن وخصوصاً أهل الفقه والعلم والاجتهاد؛ لأن الوقائع التي تحصل للناس يحتاج في إرجاعها إلى الكتاب أن يكون الإنسان ملماً بهذا الكتاب وتكون الآيات القرآنية حاضرة في ذهنه، فإذا أكثر من قراءتها تمكن من استحضار هذه الآيات المتعلقة بالمسألة النازلة بالناس وتزليل هذه النصوص على الوقائع. و أما إذا ابتعد الإنسان عن قراءة آيات القرآن كان اتصاله بها ضعيفاً فكيف يتزل الآيات القرآنية على وقائع الخلق.

ولهذا المعنى حرص سلفنا على كتاب الله ، فكان القرآن معهم في جميع أوقاتهم ، حتى يؤثر عنهم الحوادث العظيمة في قراءة القرآن ، وكان من المعهود عند غالبهم ختم القرآن في سبعة أيام (35)، هذا أغلب فقهاء السلف وعلماء السلف هذه طريقتهم ، وبعضهم يختمه في أقل وبعضهم يختمه في أكثر. ولكنهم مع قراءته يتفهمون معاني القرآن ويتدبرون الآيات ، وكذلك عند دراسة القرآن يحرصون على شرح آيات القرآن وفهم معانيها ، ولازال الناس في عهودهم ومجالس العلماء تقرأ الآيات يف أول

(35) - انظر سنن أبي داود : كتاب الصلاة ، أبواب قراءة القرآن وتخزيه وترتيله - باب تحزيب القرآن حديث: 1198 وهو ضعيف ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل : أول مسند الكوفيين ، حديث أوس بن حذيفة - حديث: 18650 وفيه : فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبحنا ؟ قال : قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ست سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة سورة ، وحزب المفصل من ق حتى تختم . وهو ضعيف .

وخرج عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه : كتاب صلاة العيدين ، باب إذا سمعت السجدة وأنت تصلي وفي كم يقرأ القرآن - حديث: 5754 : عن أيوب ، أو غيره قال : كان ابن سيرين ، يقرأ القرآن أورادا ، ثم يضيف إليها سورة أخرى من القرآن ، حتى كان ربما أضاف إليها سبع القرآن ، وكان يقرأ القرآن في سبع . قال معمر : وكان قتادة يقرأه في سبع .

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه : كتاب صلاة التطوع والإمامة وأبواب متفرقة في القرآن - حديث: 8444 :

حدثنا عبد الوهاب الثقفي ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي ، " أنه كان يختم القرآن في ثمان " ، " وأن تيمما الداري كان يختم القرآن في سبع " .

وأخرج في كتاب صلاة التطوع والإمامة وأبواب متفرقة في القرآن - حديث: 8453 قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن أبي الأحوص ، قال : قال عبد الله : " اقرءوا القرآن في سبع ، ولا تقرءوه في ثلاث " .

المجلس ثم يقوم العالم بشرح هذه الآيات بما تيسر ، وهذا مأثور من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عهد الصحابة إلى أزمان قريبة ، ومن هنا يحسن بنا أن نعود لفعل هذه السنة وأن تعمر مجالسنا بآيات من القرآن ، ومجالس العامة تعمر بآيات من القرآن ويعتاد الناس على ذلك ، تأخذ آيات ولو قلت ثم تفسر وتترل تلك الوقائع على أحوال الناس ، ليكون ذلك مفيدا هم .

ألا يحتاج الناس إلى إصلاح أفعالهم وأخلاقهم وأقوالهم لتكون متوافقة مع الكتاب ؟ حينئذ كيف يتمكن الناس من إصلاح أوضاعهم وأقوالهم وأفعالهم وجعلها مطابقة للقرآن إلا بتلاوة القرآن بين أيديهم وتفسير آيات القرآن.

وفي زماننا الحاضر وُجِدَت مشكلات كثيرة للناس ووجدت وسائل تصم القلب وتُعميه ووجد من آلات اللهو ومزامير الشيطان ما يكون سببا من أسباب قسوة القلب ، ولذلك نحن في أشد الحاجة إلى تليين القلوب ، ومن أعظم ما لينت به القلوب هذا القرآن العظيم قراءة وتفسيرا .

ولهذا ذكر الله عز وجل أن هذا الكتاب لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وسبب غفلة الخلق اليوم ابتعادهم عن هذا الكتاب وغفلتهم عنه واشتغالهم بغيره ، لو سألت الواحد من الناس: كم نشرة أخبار سمعتها اليوم ؟ لأعطاك إحصائيات كبيرة. لو سألت الناس: عن كم قرأ من صفحة في الجرائد ؟ لأعطاك الشيء الكثير. ولو سألته: كم قرأت من القرآن في هذا الأسبوع ؟ لتعجبت عند المقارنة بين هذه النتيجة ونتيجة الجواب الأول.

ومن ثمَّ عندنا حاجة شديدة لإعادة مجتمعاتنا لكتاب الله عزوجل ، نحتاج إليه نحن في أنفسنا أولاً ، ثم نحتاج إلى ذلك بالنسبة لعموم الناس .
ويخشى مع استمرار هذا وتتابع الأجيال عليه أن يدرس الكتاب وأن ينسى ، وإذا لم نقم بذلك كل منا يقوم به على قدرته وعلى مقدار وسعه وإلا فإن الله عزوجل سيرفع هذا الكتاب منا ، وبالتالي يجب بيان معاني هذا الكتاب ويجب تدارسه ، ويجب قراءته في المجالس العامة والمجالس الخاصة .

استمع لقول الله عزوجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ما هو الذي يحييك ؟ يحيي القلوب ثم يحيي الأبدان ويحيي الحياة ؟ هذا الكتاب ، ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللهُ يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ مُّحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤) إذا أحال الله ووضع حائلا بين الشخص وقلبه لن يعرف ما ينفعه وما يرفع درجته عند الله عزوجل وما يصلح حياته وآخرته ، ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ إذن الفتنة تحصل للناس بسبب بعدهم عن كتاب الله وعن الاستجابة

لأوامر الله ، ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللهُ شَكِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٢٥) ، ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَعَاوَنَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُنْصِرُهُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقَوُّوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو

أَفْضَلُ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ الأنفال: ٢٦ - ٢٩ أي قدرة تميزون بها بين الحق والباطل

هذه الآيات كأن كل واحد منكم قد خوطب بها وحده، كأنها تتعلق بكل واحد منّا، فلماذا لا نترل هذه الآيات القرآنية على أنفسنا ونحن في أشد الحاجة إليها؟

وهكذا بقية آيات القرآن العظيم ، كل واحد منّا مخاطب بها ، ويجب على كل إنسان أن يتزل آيات القرآن على نفسه حتى ينتفع بها ، إذا قرأت آيات العذاب فاستحضر أنك يمكن أن تكون من المعذبين متى اتصفت بصفة من عُدِّب ، وإذا قرأت آيات الرحمة فتطلع إلى أن تكون من أصحابها باتصافك بالصفات التي تجعلك من أهل تلك الرحمة ، بذلك نستفيد من هذا القرآن ونتعظ بما فيه .

هذا القرآن احتوى على مواعظ عظيمة تُهزُّ الجبال لكن أين المتدبر فيها؟ كيف يؤثر فينا القرآن ونحن لم نقرأه؟

ولذلك من أعظم أسباب كثرة الضلال في الناس هو الغفلة عن آيات القرآن ، أولئك الذين يجادلون في آيات الله من أعظم الأسباب التي تجعلهم يزيغون ويضلون أننا لا نخاطبهم بالقرآن ، آيات القرآن ومواعظ القرآن وحجج القرآن التي تُقنع لم نخاطب الناس بها ومن ثم أصبح الخطاب ضعيفا ، وأصبحنا لا نتمكن من إقناع الآخرين لماذا؟ لأننا لم نحاول أن نستفيد من هذا الكتاب في إيصال هذه الرسالة إلى الناس .

ميزة الدعوة إلى الله اعتمادها على الكتاب ولا يمكن أن تعتمد على الكتاب إلا بفهم معانيه وبتزيلها على وقائع الناس، وبذلك تكون دعوتنا

دعوة مجدية مقبولة مؤثرة في نفوس الناس.

أيضا مما يلاحظ في هذا أننا عند فهم القرآن وتفسير القرآن لا نزيد من عند أنفسنا ، وأنا نقتصر على المعاني المقصودة في هذا الكتاب ولا نتجاوز هذه المعاني لئلا نكون ممن كذب على الله ، لأن تفسير القرآن بغير مراد الله هذا كذب على الله وهو من أشنع الذنوب قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبِكُمْ بِعَذَابٍ وَقد خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ (٦١) ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَابِ ﴾ (٤٤) ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ (٤٥) ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (٤٦) طه: ٦١ ، ﴿ الْحَاقَّةُ: ٤٤ - ٤٦ هذا يقال للنبي صلى الله عليه وسلم فكيف بنا إذا تجاوزنا وتكلمنا في تفسير كلام الله بغير مراد الله ؟

الشياطين تحاول إضلال الناس وذلك بوسائل:

- 1- أولها : تزهيد الناس في هذا الكتاب ومحاوله إبعاد الناس عن هذا الكتاب ، ومن ثم أولئك الذين يحاولون تزهيد الخلق في الكتاب إنما أوتوا من كونهم لم يعرفوا هذا الكتاب ، فخير وسيلة لمجاهتهم إيصال الكتاب إليهم ، والرد على كلامهم بآيات من الكتاب .
- 2- ومن وسائل الشيطان لصد الناس عن كتابا لله جعلهم يهجرون القرآن، فإذا هجروا القرآن لم يعرفوا مراد الله ولم يتمكنوا من العمل به وتطبيقه.

3- ومن وسائل الشيطان صد الناس عن التدبر في آيات القرآن

وفهم معانيها ، يقرأ الآيات وإذا سألته عن معاني ما قرأ لم يعرف جوابها ، ولذلك المشكلة الأساسية عندنا هي عدم العمل بالكتاب ، وعدم العمل بالكتاب مبني على أسبا منها : عدم فهمنا للقرآن . لو كان منطلقنا في جميع أمورنا من هذا الكتاب والله ما وقف أمامنا أحد ولتغيرت أحوال الناس وتبدلت إلى الخير والصلاح ، أحوال العرب قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانت في فقر ، كانوا في فرقة ، كانوا في شتات ، كانوا أمة لا يؤبه بهم ولا قيمة لهم ، كانوا كانوا كانوا ... صفات كثيرة، ما الذي بدل أحوالهم بعد إنزال الكتاب ؟ هذا القرآن الذي آمنوا به وصدقوه وتفهموا معانيه وعملوا به ، فتغيرت أحوالهم وإلا أبدأهم هي أبدأهم ، تغيرت الأيدي ؟ تغيرت الأرجل ؟ لا والله ، كيف انقلب حالهم ؟ بهذا الكتاب، ولذلك نحن في أشد الحاجة إلى هذا الموضوع موضوع فهم القرآن وتزيله على وقائع الناس لتصلح أحوال الأمة وتستقيم.

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام :

الأول : اختلاف في اللفظ دون المعنى ، فهذا لا تأثير له في معنى

الآية ، مثاله قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ الإسراء: ٢٣ قال ابن عباس : قضى : أمر ، وقال مجاهد : وصي ، وقال الربيع بن انس : أوجب ، وهذه التفسيرات معناها واحد ، او متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية .

الثاني : اختلاف في اللفظ والمعنى ، والآية تحتمل المعنيين لعدم

التضاد بينهما ، فتحمل الآية عليهما ، وتفسر بهما ، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذك على وجه التمثيل ، لما تعنيه الآية أو التنويع ، مثاله قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦ ، قال ابن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل ، وعن ابن عباس أنه : رجل من أهل اليمن ، وقيل : رجل من أهلا لبلقاء.

و الجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها، لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَأَسَادَهَا قَا ٣٤﴾ **النبأ: ٣٤** قال ابن عباس : دهاقاً مملوءة ، وقال مجاهد : متتابعة ، وقال عكرمة : صافية . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، والآية تحتملها فتحمل عليها جميعاً ويكون كل قول نوع من المعنى .

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معا للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلاله السياق أو غيره.

مثال ذلك : قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٧٣﴾ **البقرة: ١٧٣** قال ابن عباس : غير باع في الميتة ولا عاد من أكله ، وقيل : غير خارج على الإمام الثاني ، ولأن المقصود بكل ما ذكر دفع الضرورة ، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام ، وفي حال الفسر المحرم وغير ذلك .

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ ٢٣٧﴾ **البقرة: ٢٣٧** قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح : هو الزوج ، وقال ابن عباس: هو الولي ، والراجع الأول

لدلالة المعنى عليه ، ولأنه قد روي فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم .

شرح مبحث : الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

تقدم معنا أن تفسير القرآن قد يكون بالقرآن، وقد يكون بالسنة، وقد يكون بالإجماع، وقد يكون بآثار الصحابة والتابعين. والكلام هنا في هذا القسم الأخير المتعلق بتفسير القرآن بآثار الصحابة والتابعين عندما تختلف الآثار ويوجد أكثر من تفسير للآية وهذه التفاسير غير متطابقة، فماذا نفعل؟ وعلى أي معنى من هذه المعاني نحمل الآية القرآنية؟ وبأي معنى نفسر القرآن من هذه التفاسير المأثورة؟ إذا نظرنا في الاختلاف الوارد بين الصحابة والتابعين في تفسير القرآن وجدناه على أنواع:

- النوع الأول: أن يكون هناك اتفاق في المعنى ولو اختلفوا في اللفظ، أن يكون الاختلاف في اللفظ فقط أما المعنى فواحد، فحينئذ جميع المعاني مقصودة وكلها يمكن تفسير القرآن بها.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥ ، فإن السلف قد اختلفوا في تفسير كلمة استوى فقال طائفة: علا، وقال آخرون: ارتفع. هنا الاختلاف هل هو في المعاني؟ المعاني واحدة لكن الاختلاف في اللفظ، ومن ثم نفسر القرآن بجميع هذه المعاني.

- النوع الثاني: أن يقع الاختلاف في اللفظ والمعنى وتكون المعاني غير متضادة بحيث يمكن حمل اللفظ على جميع المعاني وتكون الآية باللفظ الواحد دالة على معانٍ مختلفة، وهذه يسمونها اللفظ المشترك، والمراد

باللفظ المشترك اللفظ الواحد الدال على معاني مختلفة بأوضاع متغايرة ،
من مثل لفظ المشتري يطلق على المقابل للبائع ويطلق على الكوكب
المعروف ، فهذا لفظ مشترك لفظ واحد دلّ على معاني مختلفة بأوضاع
متغايرة .

مثال آخر: لفظة قال تطلق ويراد بها القول الذي هو التكلم، وتطلق ويراد
بها نوم القائلة نوم الظهيرة، فهذا لفظ مشترك.

إذا ورد اللفظ المشترك فبمّ نفسره ؟

نقول: إذا كانت هذه المعاني المشتركة غير متضادة فإن أهل العلم قد
اختلفوا فيها علي قولين:

1- القول الأول يقول: نفسرها على جميع المعاني فنحمل اللفظ على

جميع المعاني، وهذا هو مذهب الشافعي وأحمد وطائفة من أهل العلم.

2- والقول الثاني يقول: نفسر اللفظ بأحد هذه المعاني وهو بالمعنى الذي

يكون معه دليل، فإن لم يكن هناك دليل على أن المراد أحد هذه المعاني
جعلناه مجملاً وتوقفنا فيه حتى يأتي دليل يوضح المراد به.

والقول الأول أرجح بحمل اللفظ المشترك على جميع معانيه، و يدل على
هذا أمور:

* الأمر الأول: أن هذه التفاسير واردة عن الصحابة والأصل حجية

أقوال الصحابة في تفسير القرآن، وإذا تمكنا من العمل بجميعها فهو أولى
من إبطالها أو إبطال بعضها.

* والدليل الثاني: أن القرآن معجز فلا يبعد أن يدل اللفظ الواحد

منه على معانٍ متغايرة وهذا من إعجاز القرآن .

* والدليل الثالث: أن الصحابي الواحد يرد عنه تفسير الآية القرآنية

بالمعاني المتغايرة غير المتضادة مما يدل على صحة تفسير الآية بجميع هذه المعاني عند ذلك الصحابي، ولذلك ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها

قالت في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَعَّبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ النساء: ١٢٧ هذا في يتامى

النساء قالت : هو الرجل يكون عنده اليتيمة فيرغب فيها لمالها وجمالها

فيخسها في مهرها ، وهو الرجل تكون عنده اليتيمة لا يرغب فيها

فيزوجها من غير كفئها . ففسرت الآية بمعنيين مختلفين :

المعنى الأول: ترغبون في أن تنكحوهن.

والمعنى الثاني: ترغبون عن أن تنكحوهن.

فدل هذا على صحة حمل اللفظ المشترك على جميع معانيه إذا لم تكن متضادة.

ومن أمثلة ذلك تفسير قوله عزوجل: ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ الانشقاق: ١٧ ،

بأن المراد به دخل وخرج بحيث يقسم الله عزوجل بالليل في هذين الشأين

العظيمين في وقت دخوله وفي وقت خروجه ، وهما آيتان عظيمتان ينبغي

أن تلتفت الأذهان إليهما وأن تعرف قدرة الله بذلك ، في ساعة قلب

الكون من نور إلى ظلام ، وفي ساعة قلب الكون من ظلام إلى نور هذه

آية عظيمة وكلاهما فيه معتبر للمعتبرين ، ومثله أيضا ﴿ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

الفلق: ٣ .

إذن النوع الأول هو من باب الترادف، ما هو الترادف ؟ أن يكون هناك

معنى واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة هذا يسمى ترادف ، كما نقول في اسم السيف ايش ؟ حسام ومهند وهندية وصمصام وغير ذلك هذا يسمى ترادف النوع الأول من الترادف .

والنوع الثاني من المشترك : الذي لم تتضاد معانيه .

النوع الثالث : المشترك الذي تضادت معانيه ، بحيث لا يمكن حمل اللفظ المشترك على جميع المعاني، ومن ثمَّ نحتاج إلى معرفة المعنى المراد، ومن أمثلة

ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَالْمَطْلَقَاتُ يَرَبِّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾ البقرة: ٢٢٨

هل المراد الأطهار أو الحيض ؟ قولان للصحابة ولا مرجح ولا يمكن أن نفسر الآية بالمعنيين معاً، فهذا مشترك تضاددت معانيه، لا يمكن حمل اللفظ على جميع المعاني، ومن ثمَّ نحتاج إلى دليل خارجي يرجح أحد المعنيين.

ومن أمثلة المرجحات: مرجحات من اللفظ كما في قوله: ﴿ **ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾

قد يقول القائل: ثلاثة هذا مؤنث عدد مؤنث يكون لمعدود مذكر فيفسره مثلاً على الأطهار، لأنك تقول ثلاثة أطهار وتقول ثلاث حيض ، فهذا مرجح من ذات اللفظ لمن يقول بأنها الأطهار .

وقد يكون هناك مرجح من جهة المعنى ، من أمثلة ذلك : الترجيح في هذه

الآية لأننا لو قلنا أو فسرنا الآية بأنها الأطهار للزم على ذلك ألا تكمل الثلاثة لأنه إذا طلقها يطلقها في طهرٍ لم يجامعها فيه ، فإذا قلنا هي ثلاثة أطهار معناه هناك طهران قادمان والطهر الثالث الطهر الذي طلقها فيه،

لكنه ليس طهرا كاملا يعني هناك وقت من الطهر قبل طلاقه لم يحتسب في عدتها ، فكأنه أصبح العدد طهران وجزء ، بخلاف ما لو اعتبرنا أو فسرنا الآية بأنها الحيض فإنها تكون ثلاث حيضات كاملات .

وقد يكون المرجح بدليل خارجي كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم : **[دعي الصلاة أيام أقرائك]** (36) فإنه أراد بالأقراء هنا الحيض بالاتفاق ، فنقول : الأقراء في لسان الشرع يراد بها الحيض .

مثال آخر : قول الله عزوجل: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ النساء: ٤٣ ما المراد بالصعيد الطيب ؟

قال طائفة: المراد به التراب الذي له غبار كما هو مذهب أحمد والشافعي . وقال آخرون : بأن المراد به كل ما علا الأرض من جنسها ، كما هو مذهب مالك .

وقال آخرون بأن المراد به : كل ما علا الأرض ولو من غير جنسها . فالذين رجحوا الأول استدلوا على تفسيرهم للآية بقول النبي صلى الله عليه وسلم: **[وجعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا]** (37) .

و الذين رجحوا القول الثاني استدلوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان في أسفاره يقطع المسافات التي فيها الرمال ولا ينقل التراب معه، مما يدل على أنه يتيمم على الرمل، والرمل ليس من التراب .

و من رجح الثالث استدل على ذلك بالروايات التي فيها أن النبي صلى الله

(36) - رواه الدارقطني في سننه ، كتاب الحيض ، حديث: 711 .

(37) - أخرجه البخاري - كتاب التيمم ، حديث: 332 .

عليه وسلم ضرب على رحله في التيمم وضرب على الجدار.

إذن هذا اختلاف في اللفظ أو اختلاف في المعنى؟ اختلاف في المعنى.

هل هو - الاختلاف في المعنى هنا - في معانٍ متضادة؟ أو في معانٍ غير

متضادة؟ معاني متضادة لا يمكن أن يفسر اللفظ بجميع هذه المعاني .

مثل المؤلف لذلك بقوله عز وجل: ﴿غَيْرَبَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ البقرة: ١٧٣ فإن بعض

أهل العلم قال: المراد بذلك ﴿غَيْرَبَاغٍ﴾ السبب الذي أدّاه إلى الاضطرار

وذلك بأن لا يكون سافر سفر معصية .

وقال آخرون بأن المراد به ﴿غَيْرَبَاغٍ﴾ أي في الميتة وأكلها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾

يعني متجاوز للقدر الذي يدفع الضرورة عنه . إذن ﴿عَادٍ﴾ هل المراد به

أنه معتدي السبب الذي أداه إلى الاضطرار إلى أكل الميتة ، أو المراد به أنه

غير متجاوز للحد الذي تندفع به الضرورة .

هنا قولان للصحابة في تفسير هذه الآية، والمؤلف رجح أحد هذين

التفسيرين وهو أنه غير متجاوز لحاجته من الأكل من الميتة واستدل على

ذلك بأن مقصود الشارع من إباحة الميتة حال الضرورة هو دفع الضرورة

، والضرورة لا تختلف بين العاصي بسفره وغير العاصي ، نعم .

ترجمة القرآن

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح.

وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى. وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بازائها

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ٣) فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمة كلمة فيترجم (إنا) ثم (جعلناه) ثم (قرآنا) ثم (عربيا) وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل لكمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك أنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها يازاء حروف اللغة المترجم منها .

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات وقال بعض العلماء : إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية ، أو نحوها، ولكنها وغن أمكن تحققها في نحو ذلك - محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله ، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن المبين ، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية .

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنة حسا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم كله فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين

باللغة العربية، لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تجعل بديلا عن القرآن بحيث يستغني بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة، لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالميا بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالما بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن. ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها، بحيث يكون مسلما مستقيما في دينه.

شهر مبحث : ترجمه القرآن

هذه المسألة مسألة الترجمة مسألة عظيمة الشأن ، وقد يحدث كثير من الضلال بسبب هذه الترجمات ، وكم من ترجمة كانت سبباً لصد بعض الناس عن دين الله (38) لأنها لم تبلغ شريعة الله على مراد الله فكانت سبباً

(38) - وفي هذا الصدد يقول العلامة الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي المغربي في مقال له بعنوان منقبة للملك فيصل ما نصه : قبل بضع سنين كنت مقيماً في باريس، عند أحد الإخوان من الموحدين. وكنت قد سمعت أن الطبيب الجراح الشهير الدكتور موريس بوكاي، ألف كتاباً بين فيه أن القرآن العظيم هو الكتاب الوحيد الذي يستطيع المثقف ثقافة علمية عصرية، أن يعتقد أنه حق منزل من الله - تعالى - ليس فيه حرف زائد، ولا ناقص، وقلت للأخ الذي أنا مقيم عنده، أريد أن أزور الدكتور موريس بوكاي؛ لأعرف سبب نصرته لكتاب الله، ولرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يجيني بل ذهب إلى الهاتف "التليفون"، وتكلم مع الدكتور موريس بوكاي، وقال له: إن عندي الدكتور محمد تقي الدين الهلالي البالغ من العمر سبعمائة وثمانين سنة، يريد أن يزورك، ويتحدث معك.

فقال له: أنا أزوره الآن، وبعد قليل طرق الباب، فذهب صاحب البيت وفتح الباب، فإذا الدكتور موريس بوكاي قد جاء، فدخل علينا؛ ففرحنا بزيارته، وقلت له: أرجو من فضلك أن تحدثنا عن سبب تأليفك لكتابك: "التوراة والإنجيل والقرآن، في نظر العلم العصري" فشرع يتكلم، فقال لي: إنه كان من أشد أعداء القرآن والرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان كلما جاءه مريض مسلم محتاج إلى علاج جراحي يعالجه، فإذا تم علاجه وشفي يقول له: ماذا تقول في القرآن هل هو من الله - تعالى - أنزله على محمد، أم هو من كلام محمد نسبه إلى الله افتراءً عليه؟ قال: فيجيبني هو من الله، ومحمد صادق، قال فأقول له: أنا أعتقد أنه ليس من الله، وأن محمداً ليس صادقاً، فيسكت، ومضيت على ذلك زماناً حتى جاءني الملك فيصل بن عبد العزيز، ملك المملكة العربية السعودية. فعالجته علاجاً جراحياً حتى شفي، فألقيت عليه السؤال المتقدم الذكر، فأجابني: بأن القرآن حق، وأن محمداً رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صادق. قال: فقلت له: أنا لا أعتقد صدقه. فقال لي الملك فيصل: هل قرأت القرآن؟. فقلت: نعم قرأته مراراً وتأملته. فقال لي الملك فيصل: هل قرأته بلغته، أم بغير لغته، أي بالترجمة فقلت: أنا ما قرأته بلغته، بل قرأته بالترجمة فقط، فقال لي: إذن أنت تقلد المترجم، والمقلد لا علم له، إذ لم يطلع على الحقيقة، لكنه

من أسباب صد الناس عن الخير والهدى ، ولذلك لا بد من الاعتناء بهذا الباب عناية خاصة ، بحيث تبين الأحكام الشرعية فيه وتوضع الضوابط ويعرف من هو الأهل من غير الأهل ممن يدخل في هذا الباب .
ومن هنا نقول إن الترجمة للقرآن على نوعين :

* النوع الأول : ترجمة القرآن نفسه ، وهذه غير ممكنة لأن من

مقتضى ذلك أن يكون المترجم يدعي أن ترجمته تماثل القرآن وقد قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

أُخْبِرَ بِشَيْءٍ فُصِدَ قَهْ ، والمترجم ليس معصوماً من الخطأ والتحريف عمداً، فعاهدني أن تتعلم اللغة العربية، وتقرأه بها، وأنا أرجو أن يتبدل اعتقادك هذا الخاطيء.

قال: فتعجبت من جوابه، فقلت له: سألت كثيراً قبلك من المسلمين، فلم أجد الجواب إلا عندك ووضعت يدي في يده، وعاهدته على أن لا أتكلم في القرآن، ولا في محمد إلا إذا تعلمت اللغة العربية، وقرأت القرآن بلغته، وأمعت النظر فيه، حتى تظهر لي النتيجة بالتصديق، أو بالتكذيب.
فذهبت من يومي ذلك إلى الجامعة الكبرى بباريس، إلى قسم اللغة العربية، وانفقت مع أستاذ بالأجرة أن يأتيني كل يوم إلى بيتي، ويعلمني اللغة العربية ساعة واحدة، كل يوم، حتى يوم الأحد الذي هو يوم الراحة، ومضيت على ذلك سنتين كاملتين لم تفتني ساعة واحدة، فتلقيت منه سبع مئة وثلاثين درساً، وقرأت القرآن بإمعان، ووجدته هو الكتاب الوحيد، الذي يضطر المثقف بالعلوم العصرية أن يؤمن بأنه من الله، لا يزيد حرف ولا ينقص، أما التوراة، والأنجيل الأربعة ففيها كذب كثير لا يستطيع علم عصري أن يصدقها. انتهى ما دار بيني وبينه من الحديث في هذا الشأن .

وانظر مقال لمعالي الشيخ الدكتور محمد بن سعد الشويعر - حفظه الله - بعنوان : الملك فيصل وموريس بوكاي ، الصادرة عن جريدة الجزيرة السعودية العدد : 11635 ، فقد ذكر القصة بنوع من التفصيل .

بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ الإسراء: ٨٨ ، ومن هنا تحدى الله المشركين أن يأتوا بعشر سورٍ أو بسورة من مثل القرآن ، فالترجمة لذات القرآن غير ممكنة ، ويدلك على ذلك أمور :

– الأمر الأول: أن ألفاظ القرآن تأتي متناسبة مع السياق الذي

تساق لأجله، فمرة يُؤتى بلفظ قوي جزل، ومرة يُؤتى بلفظ لِينٍ سهل على ما يتناسب مع السياق، ومثل هذا يعجز المترجمين أن يأتوا بنفس الدرجة التي جاء بها اللفظ القرآني، وليس هذا في باب واحد بل هناك صفات كثيرة للكلمة العربية، فالمترجم وإن تمكن من الإتيان بكلمة مماثلة في جانب لكنه لن يستطيع أن يأتي بكلمة تماثل الكلمة العربية في جميع درجات جوانبها كلها. فالألفاظ القرآنية تأتي في الإهلاك بألفاظ متعددة مرة تأتي أهلكننا ومرة تأتي قصمنا إلى غير ذلك من الألفاظ، وكل منها له دلالة عربية مغايرة للفظ الآخر، والمغايرة ليست من وجه واحد بل من وجوه متعددة، ومن ثمَّ فالمترجم لا يتمكن من الإتيان بلفظ مطابق للفظ العربي الوارد في القرآن من كل جوانبه.

– الوجه الثاني: أن اللفظ العربي له معاني متعددة، والمترجم لن

يأتي إلا بترجمة واحدة لذلك اللفظ ، فحينئذ يكون قد قصر اللفظ على بعض معانيه، خصوصا أن القرآن يراد به البقاء إلى قيام الساعة بحيث يشمل أحكام وقائع العباد إلى قيام الساعة، وعقول البشر لا يمكن أن تحيط بجميع المعاني خصوصا المعاني المتعلقة بالوقائع التي لم تقع بعد.

– والأمر الثالث: أن اللغات تتفاوت في طرائق التعبير مما

يترتب عليه التفاوت في المعنى ، فمثلا في اللغة العربي يقدم المضاف على المضاف إليه، بينما هناك لغات يقدم المضاف إليه على المضاف، وهناك اختلاف في دلالة اللفظ بناء على هذا.

ومثله أيضا في دلالة الحصر، تختلف اللغات في الألفاظ الدالة على الحصر، ومن ثمَّ فإن الترجمة لذات القرآن مستحيلة غير ممكنة.

- يدل ذلك على المنع من الحالة السابقة: أن القرآن كلام رب

العزة والجلال وهو كلام إلهي، والكلام الإلهي لا يمكن أن يضاهيه وأن يماثله كلام البشر، ويدل ذلك على هذا تفاوت الترجمات التي تكون لمعاني القرآن بين اللغات المختلفة؛ ففي اللغة الانجليزية مثلا تجد العديد من الترجمات لمعاني القرآن مختلفة بل يكون بينها عدم تطابق وتضاد، ومن هنا لا بد أن ينبه في هذه الترجمات إلى أن هذه الترجمة ليست للقرآن بل هي ترجمة للمعاني .

يترتب على هذا أن القارئ لهذه الترجمات يتطلع إلى تعلم اللغة العربية ليفهم القرآن وفق ما أنزل، ويعرف أن هذه الترجمات التي بجهد بشري لا تماثل القرآن الذي هو كلام رب العزة والجلال، ومن هنا على كلام الله من البهاء والنور، ولكلام الله من التأثير في النفوس ما ليس لهذه الترجمة .

* النوع الثاني: ترجمة معاني القرآن وهي التي أشار إليها المؤلف

هنا وقسمها قسمين :

- الترجمة الحرفية : بأن يفسر كل لفظ وحده، وينبغي أن

تكون هذه الترجمة للمعاني لا لذات اللفظ، ويقع الناس المترجمون في أخطاء كثيرة نتيجة هذا الأمر.

وأورد لذلك مثال : يقول الله عزوجل ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ **العصر: ١** هنا يأتي مترجم فيترجم هذه اللفظة فيقول - يترجمها باللغة الانجليزية **and** يترجم الواو ب **and** ، **and** لحرف عطف يظن أن الواو للعطف ، لكن الواو هنا للقسم ، حروف القسم العربية تخالف حروف القسم في اللغات الأخرى .

و من هنا لا يمكن أن يكون هناك ترجمة للحرف، وإنما لابد أن يبين المقصود بذلك الحرف.

ومثله كلمة العصر ما المراد بها ؟ فإن السلف اختلفوا في تفسيرها ؛ هل المراد جزء النهار ؟ أو المراد جميع الزمان ؟ وهذا اللفظ على ما تقدم معنا لفظ مشترك يمكن تفسيره بجميع المعاني ، فعندما يأتي المترجم ويترجم هذا اللفظ بأحد المعنيين يكون قد قصر في معناه ولم يوصله على مراد الله عزوجل منه .

– إذن الترجمة لا تكون لذات القرآن ولا للفظه وإنما تكون

الترجمة للتفاسير ومعاني القرآن ، ولابد أن يبين أن هذا الجهد جهد بشري وأنه لا يمكن أن يصل إلى حقيقة القرآن ومعاني القرآن من أجل أن يكون القارئ لهذه التفاسير مطلعاً على حقيقة هذه الترجمة ، ومن أجل أن يتطلع قارئ هذه الترجمات إلى معرفة المعاني الحقيقية التي تراد بألفاظ القرآن .

و في مرات في مسائل الإعجاز فسرت ألفاظ القرآن وترجمت بمعاني

خلاف المقتضى اللغوي لهذه الألفاظ، وترتب عليه أن من أراد أن يوضح أن هذه الألفاظ دالة على الإعجاز العلمي لم يتمكن من هذا، لماذا؟ لأنه قد فُسِّرَ اللفظ وترجم اللفظ بخلاف المقصود به ومعناه .

وهذا يجعلنا نحتم في المترجم لمعاني القرآن أن ينحصر تفسيره وترجمته في تفسير معين ، فيقول هذه ترجمة لتفسير فلان للقرآن ، أو يضع له تفسيراً للقرآن ثم يترجمه ليتوافق الجهد البشري مع الجهد البشري ، أما أن تكون الترجمة أو أن تُنسب الترجمة لذات القرآن فهذا من الكذب على الله ومن القول عليه سبحانه وتعالى بلا علم .

ذكر المؤلف عدداً من الشروط التي تكون لترجمة معاني القرآن وهي شروط في محلها ونؤكد على أن ترجمة معاني القرآن يشترط في القائم بها أن يكون أهلاً لتفسير القرآن ، بحيث يكون عارفاً بالقرآن وفي نفس الوقت يكون عنده معرفة بقواعد الفهم والاستنباط المسماة قواعد أصول الفقه ليعرف أنواع الدلالات ؛ لأن اللفظ قد يكون له دلالة ظاهرة وقد يكون له دلالة خفية وقد يكون له مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة ، يكون له دلالة إشارة على أيضاً بقية أنواع الدلالات ، حتى يكون عارفاً بأنواع معاني الألفاظ القرآنية لتكون ترجمته مقربة لمعاني القرآن .

المشهورون بالتفسير من الصحابة

أشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة ، ذكر السيوطي منهم : الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم ، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة ، لانشغالهم بالخلافة ، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير .

و من المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضاً: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم حياة علي بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم.

1- علي بن أبي طالب :

هو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وزوج فاطمة رضي الله عنه وعنهما، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم. وكنيته أبو الحسن، و أبو تراب.

ولد قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بعشر سنين ، وتربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه المشاهد كلها ، وكان صاحب اللواء في معظمها ، ولم يتخلف إلا عن غزوة تبوك ، خلفه النبي صلى الله عليه وسلم في أهله ، وقال له : " أما ترضى أن تكون مني بمرتلة

هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي " (1) ، نقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره ، وهلك به طائفتان : النواصب الذين نصبوا له العداوة ، وحاولوا إخفاء مناقبه ، والروافض الذي بالغوا فيما زعموه من حبه ، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه ، بل هو عند التأمل من المثالب .

اشتهر رضي الله عنه بالشجاعة والذكاء مع العلم والذكاء من معضلة ليس لها أبو حسن ، ومن أمثلة النحويين : قضية ولا أبا حسن لها ، وروي عن علي أنه كان يقول : سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به ، وروي عنه أنه قال : ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب .

كان أحد أهل الشورى الذي رشحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة ، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبي إلا بشروط لم يقبل بعضها ، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس ، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيدا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان ، سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه .

(1) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك ، حديث رقم (4416) ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل علي بن أبي طالب . حديث رقم (6218) .

(2) وذلك لأن أباه مات في الجاهلية ، وأدركت أمه الإسلام فأسلمت .

2- عبد الله بن مسعود :

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهزلي، وأمه أم عبد كان ينسب إليها أحياناً (2)، وكان من السابقين الأولين في الإسلام ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدرا ، وما بعدها من المشاهد .

تلقى من النبي صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة من القرآن ، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام : " إنك لغلام معلم " (3) ، وقال : " من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد " (4) ، وفي " صحيح البخاري " (5) أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أي من أعلمهم بكتاب الله ، وقال : والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا ، أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحدا

(3) أخرجه أحمد (1/379، 462) .

(4) أخرجه بن ماجه (138) .

(5) أخرجه البخاري ص 433 - 434 ، كتاب فضائل القرآن ، باب 8 : القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم 5000 .

أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه ، وكان ممن خدم النبي صلى الله عليه وسلم فكان صاحب نعليه وطهوره ووسادة حتى قال أبو موسى الأشعري : قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم (1) ، ومن أجل ملازمته تأثر به وبهديه ، حتى قال فيه حذيفة : ما أعرف أحداً أقرب هدياً وسمتاً ودلاً بالنبي صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد(2) .

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة، ليعلمهم أمور دينهم ، وبعث عماراً أميراً وقال : إنهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأقتدوا بهما ، ثم أمره عثمان على الكوفة ، ثم عزله ، وأمره بالرجوع إلى المدينة ، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة .

(1) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب فضل عائشة رضي الله عنها ، حديث رقم (3763) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب في فضائل عبد الله بم مسعود وأمه رضي الله عنهما ، حديث رقم (2460) .

(2) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب فضل عائشة حديث رقم (2762) .

(3) أخرجه البخاري ن كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما . حديث رقم (3756) .

(4) أخرجه البخاري ، كتاب الوضوء ، باب وضع الماء عند الخلاء . حديث رقم (143) .

3- عبد الله بن عباس :

هو ابن عم الرسول الله صلى الله عليه وسلم ولد قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي صلى الله عليه وسلم ، وضمنه النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال : اللهم علمه الحكمة، وفي رواية : الكتاب (3) ، وقال له حين وضع له وضوءه : اللهم فقه في الدين (4) ، فكان بهذا الدعاء المبارك حبر الأمة في نشر التفسير والفقه ، حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله ، فنال بذلك مكانا عاليا حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعو به إلى مجالسة ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون : ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ ! فقال لهم : ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول ، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه ، فقال عمر : ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (النصر: ١) حتى ختم السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا ، وسكت بعضهم ، فقال عمر لابن عباس : أكذلك تقول؟ قال : لا ، قال : فما تقول؟ قال : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله ، والفتح فتح مكة ، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك ، واستغفره إنه كان توابا ، قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لنعم ترجمان القرآن ابن عباس ، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد ، أي ما كان نظيرا له ، هذا

مع أن ابن عباس عاش بعده ستا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما اكتسب بعهده من العلم .

وقال ابن عمر لسائل سأله بما أنزل عن آية : انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال عطاء : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقها وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع .

وقال أبو وائل : خطبنا ابن عباس وهو على الموسم (أي وال على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه) فافتتح سورة النور لجعل يقرأ ويفسر ، فجعلت أقول ما رأيت ، ولا سمعت كلام رجل مثله ، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت ، ولاه البصرة فلما قبل مضى إلى الحجاز ، فأقام في مكة ، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمان وستين عن إحدى وسبعين سنة .

المشهورون بالتفسير من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ- أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح .

ب- أهل المدينة وهم أتباع أبي بن كعب ، كزيد بن أسلم وأبي العالية
ومحمد بن كعب القرظي .

ج- أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود ، كقتادة وعلقمة ، والشعبي .
فلنترجم حياة اثنين من هؤلاء : مجاهد و قتادة .

1- مجاهد :

هو مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ولد
سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس
رضي الله عنهما ، روي ابن إسحاق عنه أنه قال : عرضت المصحف
على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية
وأسأله عنها ، وكان سفيان الثوري يقول : إذا جاءت التفسير عن
مجاهد فحسبك به، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيرا ما
ينقل عنه في " صحيحه" وقال الذهبي في آخر ترجمته : أجمعت الأمة
على إمامة مجاهد والاحتجاج به ، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع
ومائة ، عن ثلاث وثمانين سنة .

2- قتادة :

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري ولد أكمة أي أعمي سنة إحدى
وستين ، وجد في طلب العلم ، وكان له حافظه قوية حتى قال في نفسه

: ما قلت لحدث قط أعد لي ، وما سمعت أذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي ، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه ، وقال : قلما تجد من يتقدمه أما المثل لعل ، وقال : هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئاً إلا حفظه ، وتوفي ف واسط سنة سبع عشرة ومائة ، عن ستة وخمسين سنة .

شرح مبحث : المشتهرون بالتفسير من الصحابة

والتابعين

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى في هذا الفصل أئمة التفسير من الصحابة والتابعين، والفائدة من أئمة التفسير لهذا العلم أمور:

- الأمر الأول : معرفة أن هؤلاء الأئمة من الأعلام الثقات الذين يصح أن يستند على أقوالهم في تفسير القرآن ، وهم قد حصلوا من العلم وعرفوا من اللغة وبدلوا من أنفسهم في دراسة القرآن وفهمه ما يجعلنا نثق بما يقولونه من تفسير كتاب الله جل وعلا .

- والأمر الثاني : بيان أن تفسير القرآن ليس من الأمور الاعتباطية التي يدخل فيها كل من شاء الدخول ، بل لا بد أن يكون المقدم على تفسير القرآن ممن توفرت فيه شروط الأهلية التي حازها هؤلاء الأعلام ، أما إذا دخل في تفسير القرآن من ليس أهلا فإنه لا عبرة بتفسيره .

- والأمر الثالث : إيجاد قُدوة صالحة أمام أعيننا نقندي بها في الخير وفي فهم كتاب الله جل وعلا وتفسيره ، فإن هؤلاء الأئمة قد آتاهم الله من الفهم ومعرفة معاني القرآن ما يخولنا لأن نقندي بهم ، ومن ثمّ نتدارس سيرتهم وطريقتهم فنسير عليها .

وقد اشتهر في تفسير القرآن كثير من الصحابة الذين اعتنى الأئمة بنقل ما ورد عنهم من تفسير القرآن ، ومن أبرز المؤلفات التي اعتنى مؤلفوها بنقل تفسير الصحابة والتابعين الإمام محمد بن جرير الطبري في كتابه جامع

البيان في تفسير آي القرآن (39)، وهو كتاب عظيم اشتمل على نقولات كثيرة من أقوال الصحابة والتابعين في تفسير القرآن وقد ساقها بأسانيدها .

ومن اعتنى بهذا الباب العلامة عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتابه التفسير (40) الذي وُجدَ بعض كتابه مسندا وحاول بعض المعاصرين أن

(39) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الحافظ لأبو جعفر، محمد بن جرير الطبري نسبة الى طبرستان، شيخ المفسرين (ت 310هـ).

وكتابه الجامع من أجل التفاسير وأشهرها قال النووي: " أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري ". وهو عبارة عن موسوعة جامعة لتراث التفسير في القرون الثلاثة الأولى. وهذا الكتاب من أوثق وأقدم ما دون في التفسير بالمأثور، قال عنه الحافظ السيوطي: " وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط فهو يتفوق بذلك على تفاسير الأقدمين ".

طبع طبعات كثيرة من أهمها:

طبعة مكتبة البابي الحلبي في ثلاثين جزءاً عام 1373هـ.

وطبعة بتحقيق العلامة المحدث أحمد محمد شاكر، وصل فيها إلى الآية 28 من سورة إبراهيم، وصدرت بين السنوات 1374هـ و 1388هـ.

وطبعة بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى 1422هـ.

(40) - المؤلف: أبو محمد، عبد الرحمن بن محمد، ابن أبي حاتم، الرازي، أحد مشاهير المحدثين في عصره، مفسر، عالم بالفقه والقراءات.

يكمل هذا الكتاب بذكر ما رواه ابن أبي حاتم بدون أن يذكر معه الإسناد من خلال أخذ هذا التفسير من كتاب الدر المنثور للسيوطي ، وتفسير ابن أبي حاتم تفسير عظيم اشتمل على آثار كثيرة من آثار الصحابة والتابعين في تفسير القرآن وإن أقل من تفسير ابن جرير الطبري رحمة الله عليهما .
وممن عنيَ بجمع آثار الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الإمام العلامة عبد الرزاق بن همام الصنعاني في تفسير مختصر مطبوع (41) .
وهكذا أيضا جمع الإمام ابن سعيد أحمد بن شعيب تفسيراً اشتمل على عدد من أقوال الصحابة والتابعين بأسانيد هذه الأقوال .

وتفسير ابن أبي حاتم من أهم كتب التفسير بالمأثور، مما حدا بكثير ممن جاء بعده فصنف في التفسير بالمأثور أن يقتبس منه ويستفيد، كالغوي وابن كثير، حتى إن السيوطي ليقول في تفسيره: لخصت تفسير ابن أبي حاتم في كتابي.

طبع بتحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان. الطبعة الثانية 1419هـ - 1999م.

(41) - أبو بكر، عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني الحميري مولاهم، محدث، مفسر، من أهل صنعاء، من كبار الحفاظ، وثقه غير واحد، (ت 211هـ)، وقد نقل عنه الطبري في تفسيره.

وكتابه: عبارة عن نصوص مسندة في التفسير يرويها عبد الرزاق عن شيوخه بالسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان النص مرفوعاً، أو إلى الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم إذا كان النص موقوفاً أو مقطوعاً. طبع ببيروت، دار المعرفة - الطبعة الأولى 1411هـ .

و ممن اعتنى أيضا بتفسير الصحابة والتابعين للقرآن العلامة سعيد بن منصور فقد اشتمل كتابه السنن على كثير من تفسير هؤلاء الأئمة. وكذلك عني العلامة أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة بذكر شيء من تفاسير الصحابة والتابعين للقرآن في كتابه العظيم المصنف . كما أن هناك طائفة من أهل العلم حرصت على ذكر تفاسير الصحابة والتابعين وإن لم يوردوا تفاسيرهم للقرآن بالأسانيد ؛ ومن هؤلاء الأمام البخاري في كتابه الصحيح فقد اشتمل على نقولات كثيرة من تفسير الصحابة والتابعين للقرآن في أوائل أبواب كتاب التفسير وفي غير كتاب التفسير من صحيحه .

ثم تتابع الأئمة والعلماء على نقل أقوال الصحابة والتابعين في تفسير القرآن وممن حرص على نقل كلامهم في هذا الباب العلامة إسماعيل بن كثير في تفسيره تفسير القرآن العظيم (42)، فقد حرص على نقل كثير من أقوال

(42) - تفسير القرآن العظيم لابن كثير للعلامة ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، عماد الدين، مؤرخ مفسر محدث، من فقهاء الشافعية (ت 774هـ).

وتفسير ابن كثير من أهم كتب التفسير بالمأثور، مع جازة لفظه وشمول معانيه، وقد تلقتة الأمة بالقبول قديما وحديثا، واشتهر عند العامة والخاصة. قال الشيخ أحمد شاکر في اختصار لهذا التفسير : وبعد فإن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا ، وأجودها وأدقها بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري".

طبع طبعات كثيرة من أحسنها طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع. بتحقيق : سامي بن محمد سلامة. الطبعة :

الثانية 1420هـ - 1999م .

الصحابة والتابعين.

ولما جاء السيوطي جلال الدين عبد الرحمن المتوفى سنة تسعمائة وإحدى عشر للهجرة كتب كتابه العظيم الدر المنثور (43) ، جمع فيه آثار الصحابة والتابعين من الكتب والمؤلفات التي اعتنت بالتفاسير ، وقد كان كتبه أولاً بأسانيد ثم بعد ذلك اختصره بحذف الأسانيد ، والنسخة الموجودة بين أيدينا اليوم هي النسخة المختصرة التي لم يذكر معها الإسناد . وكذلك اعتنى طائفة من المفسرين الذين يفسرون القرآن بالأثر بأقوال هؤلاء الأئمة من الصحابة والتابعين في تفسير القرآن، فنقلوه في كتبهم التي ألفوها في تفسير القرآن.

وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه م قد اعتنوا بتفسير القرآن لأنهم قد حرصوا على نشره في الأمة وحرصوا على إيضاح

(43) - الدر المنثور في التفسير بالمأثور للعلامة عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي، حافظ مؤرخ محدث مفسر أديب (ت 911هـ).

وقد اقتصر فيه على جمع ما ورد عن الصحابة والتابعين في التفسير، وضم لها ما ورد فيها من الأحاديث المخرجة من كتب الصحاح والسنن وبقية كتب الحديث ، وحذف الأسانيد للاختصار ، مقتصرًا على متن الحديث. كل ذلك على سبيل السرد من غير تعقيب أو تصحيح أو ترجيح. طبع بيروت، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 1421هـ - 2000م.

معانيه وذلك لأنهم أولا هم أهل اللغة فكانوا يعرفون من اللغة ما يمكنهم من فهم القرآن ، ثم ثانيا هم قد شاهدوا مواطن التزيل وعرفوا أسبابه فمن ثمَّ كان لهم من القدرة على فهم القرآن ما ليس لدى غيرهم ، ثم إن هؤلاء الصحابة قد آتاهم الله من الحفظ والفهم ومعرفة المعاني وإدراك مقاصد الشريعة ما لا يوجد عند غيرهم ، ولذلك كان لتفسيرهم من المزية ما ليس لتفسير غيرهم .

وقد ذكر المؤلف صحابيين جليلين في تفسير القرآن على جهة التمثيل ، وإلا فإن تفسير القرآن قد اعتنى به أكثر الصحابة الذين لديهم العلم والأهلية ، ومنهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنه م ، وإن كان أئمة التفسير لا ينقلون شيئا كثيرا من تفسير أبي بكر وعمر وعثمان للقرآن وذلك لأن زمانهم متقدم ، ومن ثمَّ لم يحتج الناس إلى علمهم كثيرا لكون الناس لازالوا على معرفة باللغة ولكون هؤلاء الأئمة قد اشتغلوا بتصريف أحوال الأمة وتهيئة ما ينفعها في دنياها وآخرتها .

واشتهر عدد كثير من الصحابة ممن تأخرت وفياتهم، وقد ذكر المؤلف منهم الصحابيين الجليلين علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، وقد ترجم المؤلف لهما بتراجم مختصرة.

وأهل العلم قد كتبوا في تراجمهما صفحات كثيرة بينوا فيها فضائلهم ومناقبهم وفضلهم وأثرهم في علم التفسير.

وقول المؤلف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه: أول من آمن به من قرابته أي من قرابته الذين هم أبناء عبد المطلب.

وقوله هنا : تربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أن أبا طالب كان عنده أبناء أكثر فقام النبي صلى الله عليه وسلم بطلب أحد أبناءه ليقوم بتربيته ليخفف من مؤونة تربية الأولاد على عمه أبي طالب .
وقوله : شهد معه الشاهد كلها أي أنه كان يحضر المعارك التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يشارك فيها.

قوله : وكان صاحب اللواء : لأن النبي صلى الله عليه وسلم أن يوزع الجيش بحسب قبائلهم وبحسب فئاتهم ، فكان لواء النبي صلى الله عليه وسلم مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقوله : نقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره : لأن له خصائص ليست لغيره ، وكذلك غيره من الصحابة قد يكون له خصائص ليست لهذا الصحابي الجليل فلأبي بكر لعمر ولعثمان أخرى لم يحزها هذا الصحابي الفاضل علي بن أبي طالب .

قال: وهلك في هذا الصحابي الجليل طائفتان:

الأولى : الذين ينصبون له العداوة ويحاولون إخفاء مناقبه، هؤلاء على ضلالة لأن الله قد رفع من مكانته وأعلى منزلته فمن ضاد الله في خبره وأمره فإنه حينئذ قد أخطأ وخالف المنهج الحق.

والطائفة الثانية : التي هلكت في هذا الصحابي الجليل الرافضة ؛ والرافضة على ثلاثة أنواع :

1- النوع الأول : من اعتقد الألوهية في علي بن أبي طالب

رضي الله عنه وهؤلاء حرقهم علي رضي الله عنه ، ولازال لهذه الطائفة

بقايا يعتقدون أن العبادة تصرف لهذا الصحابي الجليل ، بينما العبادة حق خالص لا يجوز صرفها لغير الله ، من صرفها لغير الله فهو مشرك .
وقد ثبت أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حفر الأحاديث وألقاهم في النار، فأمر عليه ابن عباس وقال: لو كنت مكانك فلما حرقتهم ولقتلتهم بالسيف فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل المرتد.

2- والطائفة الثانية : الذين هلكوا في هذا الصحابي الجليل

هم أولئك الذين يكفرون الصاحبين أبا بكر وعمر رضي الله عنه ما، وهؤلاء قد طلب علي رضي الله عنه طوائف منهم من أجل قتلهم لكنه لم يتمكن منهم.

3- والطائفة الثالثة : من الرافضة هم المفضلة الذين يفضلون

علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أبي بكر وعمر ، وهؤلاء وجودهم اليوم قليل ، وأكثر الروافض من القسم الأول .
والقسم الثالث قد رد عليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنفسه وقال : لا أوتى بأحد فضلي على الشيخين إلا جلده حتى حد المفترى - يعني حد القذف - .

ومن صفة كثير من الرافضة أنهم يكذبون في الأخبار التي ينقلونها فيذكرون له مناقب لم تثبت عنه رضي الله عنه ، وقد ذكر أن كتبهم التي ألفت في الأخبار عندهم تزيد ما بين سنة وأخرى.

وكان لهذا الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه صفات عظيمة ؛ فقد كان مضرب المثل في الشجاعة مما يدل على كذب أولئك

الذين يزعمون أن أبا بكر وعمر قد أخذوا منه الخلافة قهرا وظلما ، فإن شجاعة هذا الصحابي الجليل وعدم خوفه في الحق تجعلنا نكذب بما يخبر به هؤلاء من الأخبار المدعية أن أبا بكر وعمر رضي الله عنه ما قد غصبا الخلافة من هذا الصحابي الجليل .

كما لهذا الصحابي الجليل ذكاء وعلم وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما قيل له: هل عندكم شيء من العلم ليس عند الناس ؟ فقال : ليس عندنا شيء إلا ما في هذا الكتاب فيه أسنان الإبل وشيء من الأحكام ، قال : وإلا فهما يأتاه الرجل في كتاب الله جل وعلا . وقد ثبت عنه رضي الله عنه أنه عرّف عن نفسه بأنه يعرف موطن تنزيل القرآن .

فإن قال قائل: هل هذا من الإعجاب بالنفس والثناء عليها ؟ نقول : هذا ليس من الثناء على النفس ولا الإعجاب بها ، وإنما ما أراد به هذا أن يُعرّف بنفسه من أجل أن يأخذ الناس عنه العلم ، ومن ثمّ يكون هذا سببا من أسباب توجه الناس إلى تفسير القرآن والأخذ من هذا الصحابي الجليل ، فإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عنده علم في هذا الباب وحرص على أن يأخذ العلم منه من أجل أن ينتشر العلم ويتمسك الناس بالشرع .

وأما النموذج الثاني الذي ذكره المؤلف من الصحابة الذين اعتنوا بتفسير القرآن فهو عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن مسعود ليس من قبيلة قريش وإن كان قد دخل في هذه القبيلة على جهة الولاء لها والحلف وإلا فهو من قبيلة هذيل .

وهذا الصحابي الجليل له فضائل كثيرة عديدة وقد أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بأن لديه علما وبأن لديه معرفة بكتاب الله ولذلك أثنى هو على نفسه من أجل أن يأخذ هذا العلم منه ، وكان رضي الله عنه ممن خدم النبي صلى الله عليه وسلم فكان صاحب نعله - يعني أنه يأخذ نعال النبي صلى الله عليه وسلم - .

وكان مكثرا لملازمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك تأثر به وبهديه فكان أقرب الناس هديا: يعني في الأمور الظاهرة ، وسمتا : يعني في الخلق والأعمال ، ودلا : يعني في الهدي الباطن بالنبي صلى الله عليه وسلم . ومن معرفة الصحابة بعلم هذا الصحابي الجليل كانوا يرسلونه لتعليم الناس علوم الشريعة ، ولذلك فإن كثيرا من علماء التابعين خصوصا الذين في العراق الكوفة والبصرة وغيرها قد أخذوا من هذا الصحابي الجليل ومنهم علقمة والأسود وغيرهم .

ثم ذكر المؤلف نموذجا ثالثا من الصحابة الذين اعتنوا بتفسير القرآن ألا وهو عبد الله بن عباس، فإن ابن عباس نموذج لأولئك الصحابة الذين اعتنوا بطلب العلم من صغر أسنانهم ، فتفرغوا للعلم وطلبوه فاحتاج الناس إليهم عند كبرهم .

ومن مميزات رضي الله عنه انه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وأن حالته ميمونة الهلالية زوج النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك كان قريبا من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم والفقہ في الدين ومعرفة الكتاب فاستجاب الله جل وعلا لنبيه هذه

الدعوات .

وكان عمر يدينه في مجالسه ، مما يدل على أن العبرة في العلم هو بما يحصله الإنسان في هذا الباب وليست العبرة في هذا الباب بكبر السن ولذلك قال عمر عنه : ذالكم فتى الكهول ، له لسان سؤول - أي يكثر الأسئلة في المسائل التي لم يعرف حكم الشرع فيها - ، وله قلب عقول - أي يحفظ كل ما يجد عليه من العلم والمعاني - .

وقد حرص عمر على إظهار فضل هذا الصحابي وعلمه من أجل ألا يحتج محتج عليه بأنه قد أدخله معه مع كبر أسنانهم وصغر سنه ومع كونهم لهم أبناء يماثلونه في السن.

وقول ابن مسعود: لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد: أكثر أهل العلم يرون أن قوله ما عاشره أي لم يبلغ عشره أحد منا. وبعضهم يقول : بأنه لم يماثله أحد منا .

وذكر المؤلف عددا من الحوادث التي رجعت الصحابة فيها إلى تفسير ابن عباس للقرآن.

ثم ذكر المؤلف نموذجين آخرين من نماذج السلف الصالح الذين اعتنوا بتفسير القرآن من التابعين أولهم مجاهد بن جبر وهو ممن لازم ابن عباس وقد عرض المصحف على ابن عباس عرضات متتابعة يوقفه عند كل آية ويسأله عنها ، مما يدل على اعتناء السلف بتفسير القرآن وقراءته .

وإذا كنا نريد أن نعود إلى حياة النبوة فلا بد من الرجوع إلى كتاب الله

عزوجل وأن نكثر من تفسير القرآن ، وأن نعمم دروس تفسير القرآن في مجالسنا وفي مساجدنا وفي بيوتاتنا وعند أهلينا لأن هذا القرآن هو الأصل ، وانظر كيف قال مجاهد أنه قد عرض المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته يوقفه عند كل آية ويسأله عنها .

وأما النموذج الآخر فهو قتادة ، فقتادة مع ضعف ما لديه من حواس فقد كان رضي الله عنه أعمى قد وُلِدَ كذلك ، وضعف سمعه في أواخر عمره ، ومع ذلك كان إماما يقتدى به في العلم سواء في تفسير القرآن أو في الحديث النبوي ، ولذلك أعطاه الله عزوجل حافظه قوية وكان الأئمة يذكرون من فضله وعلمه وفقهه ومعرفته بتفسير القرآن ما يتعجب المرء من هذا التابعي الجليل .

وهذه نماذج تجعلنا نسير على هدي هؤلاء الأفاضل ونقتدي بهم في الحرص على تفسير كتاب الله عزوجل ومعرفة معانيه وكذلك هذه النماذج تجعلنا نثق في تفسير الصحابة والتابعين إذا عرفنا ما لديهم من الثقة وعرفنا ما ورد عليهم من الثناء عرفنا ما يدل على ضبطهم وإتقانهم لما يتكلمون به ، حينئذ نثق بما ورد عنهم من تفسير القرآن .

القرآن محكم ومشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : الإحكام العام الذي وصف به القرآن كله ، مثل قوله

تعالى: ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾ هود: ١ ،

وقوله: ﴿الرَّتْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ يونس: ١ ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أَمْرِ

الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ الزخرف: ٤ .

ومعنى هذا الإحكام الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله

تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ الزمر: ٢٣ ومعنى هذا

التشابه ، أن القرآن كله يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة والغايات

الحميدة ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ النساء: ٨٢ .

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ

مُتَشَبِّهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ آل عمران: ٧ .

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحا جليا، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الحجرات: ١٣، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٢١ وقوله: ﴿وَاحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ البقرة: ٢٧٥ وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ المائدة: ٣ وأمثال ذلك كثيرة .

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبها خفيا بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العلم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المائدة: ٦٤ أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضا حين يقول: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ النساء: ٧٩ ويقول في موضع آخر: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هِيَ مِنْ نَفْسِكَ﴾ النساء: ٧٩ ويقول في موضع آخر: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هِيَ مِنْ نَفْسِكَ﴾ النساء: ٧٩

هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿النساء:

.٧٨

ومثاله فيما يتعلق برسول الله ، أن يتوهم واهم من قوله: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ يونس: ٩٤ ظاهره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شاكا فيما أنزل إليه .

شرح مبحث: القرآن محكم ومتشابه

فتباحث في هذا اليوم في موضوع مهم هو من أسباب وقاية الأمة من كثير من الفتن والشبهات ، ألا وهو موضوع المحكم والمتشابه ، فإن أهل الضلالة وأهل العقائد الفاسدة يستدلون بآيات من القرآن على غير مراد الله عزوجل ، فَيَبْثُوا بدعهم وينشروا باطلهم .
ومن هنا نحن نحتاج إلى تأصيل هذا الموضوع وهو ما يتعلق بالاستدلال بالآيات المتشابهة ، كيف يتعامل معه ؟ وكيف نتجنب بإذن الله عزوجل أسباب الضلالة المتعلقة بهذا الموضوع.

دلت الآيات القرآنية فيما يتعلق بموضوع الإحكام والتشابه على أربعة أمور :

1- الأمر الأول : أن القرآن كله محكم ، وهذا يسمى الإحكام

العام الذي شمل جميع آيات القرآن والدليل على هذا النوع قوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ﴾ هود: ١ ، وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾

لقمان: ٢ والمراد بهذا الإحكام العام عدد من المعاني :

* المعنى الأول : أنه لا تناقض فيه ؛ إذ إن إحكام الشيء جعله على أكمل الوجوه وأتمها بحيث لا يحصل فيه تناقض ولا اضطراب ولا اختلاف .

* والمعنى الثاني من معاني الإحكام العام : نفع هذا الكتاب ؛ فهو

عظيم المنفعة ينتفع الناس به في أمور دنياهم وآخرتهم .

* والمعنى الثالث من معاني الإحكام: أنه حكم عدل لا جور فيه ولا ظلم .

* والمعنى الآخر من معاني الإحكام العام : أنه مشتمل على أنواع درجات الحكمة ، المراد بالحكمة وضع الأمور فيما يناسبها . وكل هذه المعاني قد اشتمل عليها القرآن .

2- المعنى الثاني : التشابه العام فإن القرآن يوصف بأنه متشابه كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ الزمر: ٢٣ ويدخل في معنى التشابه العام عدد من المعاني منها :

* أولاً أنه يصدق بعضه بعضاً من التشابه وعدم التناقض .
* والمعنى الثاني : صدق أخباره وعدم مناقضتها للحق ، فهي مشابهة للواقع غير مخالفة له .

* المعنى الثالث : أن هذا القرآن مشتمل على درجات الجودة

والكمال ، ليس فيه مثلب ولا يتمكن أحد من تنقصه بوجه حق .

* والمعنى الرابع من معاني التشابه العام للقرآن : أنه مشتمل على

المقاصد الحميدة والغايات المفيدة .

3- القسم الثالث الإحكام الخاص : وذلك أن الله عزوجل قد جعل

من الكتاب آيات محكمات كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴿٧﴾ آل عمران: ٧ ، والإحكام

الخاص قد اختلف العلماء في معناه على خمسة أقوال :

* القول الأول : أن المراد بالمحكم ما لا تلتبس فيه الأفهام بحيث لا يرد

إلى الذهن من هذه الآيات المحكمات معنى غير مقصود للشارع . مثال

ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١ لا يرد عليه احتمال

التثنية ولا التثليث، فهذا محكم بهذا المعنى.

* المعنى الثاني من معاني الإحكام الخاص : وضوح المعنى وعدم خفائه

، هذا هو الذي ذكره المؤلف ومثل له .

* والمعنى الثالث: أن الإحكام الخاص هو المعنى الذي سيق الكلام من

أجله بحيث لا يرد عليه احتمال ، وهذا هو تفسير فقهاء الحنفية حيث

يقسمون الألفاظ واضحة الدلالة على محكم ومفسر ونص وظاهر،

وتفاصيل هذا مذكورة في كتب الأصول.

* المعنى الرابع من معاني الإحكام الخاص : عدم النسخ ، إذن المعنى

الرابع من معاني الإحكام الخاص بقاء الحكم وعدم النسخ ، وهذا نجده

كثيرا عند المتقدمين يقولون هذه آية محكمة وهذه آية منسوخة .

* المعنى الخامس من معاني الإحكام الخاص : ما يستقل بمعناه ولا يرد

عليه ما يؤثر على مدلوله ، فيقولون : المحكم هو الذي لم يرد عليه تأويل

ولا تخصيص ولا تقييد .

والأشهر في موضوع الإحكام الخاص هو المعنى الأول من هذه المعاني .

4- القسم الرابع التشابه الخاص: وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ

الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ آل عمران: ٧

وللعلماء في تفسير التشابه الخاص ثلاثة أقوال:

* القول الأول: أن المراد بالتشابه الخاص ما يحتاج إلى غيره في تفسيره

بحيث يدخل فيه الألفاظ خفية المعنى.

* القول الثاني: أن التشابه الخاص يراد به ما قد يفهم منه بعض الناس

ما يخالف مدلوله ، ومثل له المؤلف بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾

المائدة: ٦٤ عندما يظن ظان أن المراد بذلك يداً مماثلتان لأيدي المخلوقين .

* والقول الثالث: في معنى التشابه الخاص أنه مدلول اللفظ القرآني غير

المراد لله.

ما الفرق بين الثاني والثالث؟ إن المعنى الثاني بحسب توهم المتوهمين ، وأما المعنى الثالث فإن اللفظ قد يدل عليه لغة لكنه لم يرد ذلك المعنى في الشرع .

مثال ذلك : قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩

، إذا فهم فاهم أو توهم متوهم أن المراد بقوله: ﴿نَحْنُ﴾ الجمع فحينئذ

نقول هذا الواهم تشابه عليه مدلول اللفظ فإن المراد هنا هو الواحد المعظم

لنفسه ، اتضح الفرق بين المعنى الثاني والثالث؟

نقول نحن في اللغة قد تدل على الجمع ، لكن في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾

﴿ المائدة: ٦٤ ﴾ ليس من مقتضى هذا اللفظ مشابهة بقية الأيدي فهذا من التوهم ، وأما الثاني فله مدلول اللغة لكنه ليس ذلك المدلول مرادا للشارع ، وعرفنا أن هذا المعنى ليس مرادا للشارع برد هذه الآية للآيات المحكمة الدالة على أن الله واحد وأنه ليس بمتعدد ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ النساء: ١٧١ .

هذا النوع الأخير وهو المتشابه التشابه الخاص ضل بسببه أقوام وطوائف كثيرة فأخذوا بعض آيات القرآن ففسروها بغير مدلولها أو بغير مراد الله بها ، ومن أمثلة هذا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ الشورى: ١١ عندما توهم المتوهمون أن المراد نفي الصفات .

ولازال أهل الضلالة يستدلون بالآيات المتشابهة التشابه الخاص ويضلون بها الخلق ، ولو نظر الإنسان إلى كتابات بعض كتابات أهل الضلالة في عصرنا لوجد فيها شيئا كثيرا من الاستدلال بآيات قرآنية وأحاديث نبوية على غير المراد بها ، أو على ما لا تدل عليه أصلا ، ومن أمثلة ذلك مثلا : عندما يستدل مستدل على جواز الاختلاط بين الرجال والنساء بقصة المرأتين اللتين وجدتهما موسى خلف الناس ، فهذا استدلال فاسد لأن هاتين المرأتين لم تخالطا الناس بل اعتزلتا الناس ولم تخالطاهم ، بل هي جديرة بأن يستدل بها على أن الشأن في القرون السالفة ابتعاد النساء عن مواطن اجتماع الرجال ، ولذلك لم يسقيا وكان من شأنهما أنهما لا يسقيان حتى يصدر الرعاء .

وهكذا أيضا قد يستدل مستدل على جواز السفرور وكشف المرأة لوجهها

بقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ ﴾ النور: ٣٠ فيقول القائل : لأنه لم يؤمر الرجال بغض الأبصار إلا لأن النساء يكشفن وجوههن .

ومن المعلوم أن هذا استدلال فاسد ؛ لأن من النساء من لم يلتزموا بالأمر الإلهي فخطب الرجال بذلك ، ولو كان هذا الاستدلال استدلالا

صحيحا لقال قائل بجواز دفع الربا لأن الله قال : ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ﴾ آل عمران: ١٣٠ ولم ينه عن الدفع وإنما نهى عن الأخذ .

وهكذا أيضا في مسائل الربا قد يستدل مستدل على جواز الربا في

المشاريع الإنتاجية بقوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُوْعُسْرَةً فَنظْرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾

البقرة: ٢٨٠، قال فدل على أن الربا الممنوع منه هو الذي يأخذه الفقراء

المعسرون . وهذا استدلال فاسد لم تدل الآية عليه لأن الذي في الآية

شرط : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُوْعُسْرَةً ﴾ فدل هذا على أن من يكون عليه الربا قد يكون من ذوي العُسرة وقد يكون من غيرهم .

فالمقصود أن الاستدلال بآيات متشابهة كثير بل قد وجد في عصرنا من

يؤلف المؤلفات في جمع الآيات والأحاديث المتشابهة ليستدل بها على

مقصود مخالف في الشرع ، ولذا نتبين أهمية هذا الموضوع موضوع التشابه

والإحكام ، ولعلنا نتدارس الموقف الشرعي اتجاه الإحكام والتشابه .

موقف الراسخين في العلم والزائعين من المشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائعين منه بينه الله تعالى فقال في الزائعين : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ ﴾ آل عمران: ٧ ، وقال في الراسخين في العلم : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ ﴾ آل عمران: ٧ فالزائعون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله ، وفتنة الناس عنه ، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به ، فيضلون ، ويضلون .

ويقولون في المثال الأول : إن الله تعالى يدين حقيقتين على ما يليق بجلاله وعظمته ، لا تماثلان أيدي المخلوقين ، كما أن له ذات لا تماثل ذوات المخلوقين ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الشورى: ١١ .

ويقولون في المثال الثاني : إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل ، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده ، أما السيئة فعل العبد كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ الشورى: ٣٠ فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه ، لا من إضافته إلى مقدره ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مقدره ، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة .

ويوقون في المثال الثالث : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقع منه شك فيما أنزل إليه ، بل هو أعلم الناس به ، وأقواهم يقينا كما قال الله تعالى في نفس السورة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٠٤ المعنى إن كنت في شك منه فأنا على يقين منه ، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، بل أكفر بهم وأعبد الله .

ولا يلزم من قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ يونس: ٩٤ أن يكون الشك جائزا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو واقعا منه . ألا ترى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الزخرف: ٨١ هل يلزم منه أن يكون الولد جائزا على الله تعالى أو حاصلًا ؟ كلا ، فهذا لم يكن حاصلًا ، ولا جائزا على الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ مريم: ٩٢ - ٩٣

ولا يلزم من قوله تعالى : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ البقرة: ١٤٧ أن يكون الامتراء واقعا من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَّبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ القصص: ٨٧ ومن المعلوم أنهم لم يصدون النبي صلى

الله عليه وسلم عن آيات الله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقع
منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه : التنديد بمن
وقع منهم والتحذير من مهاجمهم ، وبهذا يزول الاشتباه ، وظن ما لا
يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم .

شرح مبحث: موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه

ذكر المؤلف هنا مواقف الناس بالنسبة للمتشابه وأنهم يقفون موقفين :
 - **الموقف الأول:** من يفسرون اللفظ القرآني بغير مراد الله به، وهذا هو موقف الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه. ومن أمثلة ذلك عندما يستدل مستدل بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِصَلْوَاتِهِ ۚ وَهُوَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٠﴾ على قتل أهل الذمة وأهل العهد، فهذا من اتباع المتشابه، وهذا من موقف الزائغين. ما الذي يدفع هؤلاء الزائغين أن يستدلوا بهذه الآيات على غير مراد الله؟ وما الذي يجعلهم يتبعون المتشابه؟ هذا له أغراض متعددة:

* أولها: محاولة الطعن في القرآن بدعوى أنه متناقض؛ لأنهم يفسرون إحدى الآيتين بغير مراد الله بها، فيزعمون أنها تتناقض مع آية أخرى.
 ومن أمثلة ذلك أن يقول قائل: إن الله عز وجل قال عن أهل النار: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ٢٣﴾ **النبا: ٢٣** فهذا يقتضي أنهم يخرجون منها بعد مرور هذه الأحقاب، بينما في آية أخرى قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ٦٥﴾ **الأحزاب: ٦٥**، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ٢٣﴾ **الجن: ٢٣**، فيقول: هذا تناقض.

والتناقض إنما هو في فهمه لأنه فسر قوله: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ٢٣﴾ بغير مراد الله منها؛ إذ ليس المراد سنين محصورة إنما المراد سنين متطاولة، فتكون

متوافقة مع مدلول الآية الأخرى.

والرد على الزنادقة الذين يستدلون بمثل هذه المواضع على ما يزعمون من تناقض القرآن قد اعتنى الأئمة به من العصور الأولى ، ولذلك ألف الإمام أحمد كتاب الرد على الزنادقة فيما تأولوه من متشابه القرآن وهو كتاب عظيم النفع ، وقد ألف في مشكل القرآن جماعة من العلماء ، من أجمع المؤلفات في هذا الباب كتاب الإمام محمد الأمين الشنقيطي : دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ، وهو كتاب عظيم فيه معانٍ عظيمة .

* الغرض الثاني الذي يقصده الذين يتبعون المتشابه : قطع الطريق

على أهل الحق في الاستدلال بالنصوص القرآنية على ما يروونه وما يعتقدونه من الحق ، فهم يقولون : الآيات ليست صريحة في هذا الباب ؛ فآية تثبت وآية تنفي ومن ثمَّ لا يصح الاستدلال على معتقداتكم بهذه الآيات .

* والغرض الثالث : تأييد الباطل الذي يروونه ، ومثلنا بذلك باستدلال

نفاة الصفات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى: ١١ .

* والغرض الرابع : توهين الاستدلال بالنصوص ليرجع الناس إلى

معقولاتهم التي هي في الحقيقة ضلالات وليست من العقل في شيء ، لأن ما يخالف النص هو في الحقيقة ضلالة وغيٌّ ومضاد للعقل .

نضرب مثال آخر لما استدل به بعضهم من الآيات المتشابهة: قوله تعالى

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ الأنعام: ١٠٣ (44) استدلال به الزنادقة على دعوة

(44) - قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي في مجالسه في التفسير والتي طبعت بعنوان العذب النمير من

مجالس الشنقيطي في التفسير : استدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة على أن الله لا يرى بالأبصار .

واستدلواهم بهذه الآية على ذلك باطل .

واعلموا أولا : أن التحقيق في رؤية الله بعين الرأس أنها ينظر إليها بنظرين :

أحدهما : النظر إليها بالحكم العقلي .

والثاني : النظر إليها بالحكم الشرعي .

أما رؤية الله بالنظر إلى حكم العقل : فهي جائزة في الدنيا ، وجائزة في الآخرة .

فالدليل على جوازها عقلا في دار الدنيا : أن نبي الله موسى - وهو هو - قال { رب أرني أنظر إليك } (

الأعراف : آية 143) فلو كانت رؤية الله مستحيلة عقلا في الدنيا لما خفي ذلك على نبيه موسى ، لأنه لا

يجعل المستحيل في حق الله .

أما بالنظر إلى الحكم الشرعي : فهي جائزة وواقعة في الآخرة قطعا ، ممتنعة في الدنيا . وهذا هو التحقيق ،

فعلم من هذا التحقيق : أن رؤية الله بالأبصار وعيون الرؤوس جائزة عقلا في الدنيا وفي الآخرة ، ممتنعة

شرعا في الدنيا .

فالله جل وعلا في دار الدنيا لا يرى بالأبصار فعلا ، وإن كان ذلك يجوز عقلا ، ولكنه في الآخرة يراه

المؤمنون " جل وعلا " ، هذا هو التحقيق .

ومذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه آيات القرآن ، والأحاديث الصحيحة المتواترة ، أن رؤية الله

واقعة شرعا ، يراه المؤمنون يوم القيامة بأبصارهم ، كما جاء عن حوالي عشرين صحابيا في أحاديث

متواترة : أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة . وقد نص الله على ذلك في آيات من كتابه ، كقوله : { وجوه

يومئذ ناظرة 22 إلى ربها ناظرة 23 } (القيامة : الآيتان 22 ، 23) وكقوله " جل وعلا " في الكفار : {

كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون 15 } (المطففين : آية 15) يفهم من مفهوم مخالفته : أن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه فسر قوله : { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } قال : " الحسنى الجنة ، والزيادة : النظر إلى

وجه الله الكريم " .

هذا هو التحقيق في رؤية الله ، أنها جائزة في حكم العقل في الدنيا والآخرة ، ممتنعة في حكم الشرع في دار

الدنيا ، واقعة في الآخرة .

ولطالب العلم هنا سؤال ، وهو أن يقول : إذا كانت جائزة عقلا في الدنيا فما وجه منعها وعدم إمكانها شرعا ؟

أجاب بعض العلماء عن هذا السؤال : بأن الناس في دار الدنيا ركبوا تركيبا ضعيفا معرضا للتغير ، والفناء ، والزوال ، لا يقدر ، ولا يستطيع ، ولا يقوى على رؤية خالق السماوات والأرض ، والدليل على ذلك : أنه لما تجلّى للجبل صار الجبل دكا لعظم رؤية الله " جل وعلا " ، كما يأتي في الأعراف في قوله : { قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا } (الأعراف : آية 143) فما يدك الجبال لا يقدر عليه بنو آدم ، ولا يقوون عليه . أما في الآخرة فإن الله يركبهم تركيبا جديدا قويا ليس قابلا للتغير ولا للفناء ، فيقوون بتلك القوة على رؤية الله جلا وعلا .

فتبين بهذا أنها جائزة عقلا في الدنيا ، إلا أن البشر يعجزون ولا يقوون عليها ، وأنها واقعة شرعا ، لأنهم في ذلك الوقت يطيقونها لتركيبهم الجديد الدائم .

هذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد قدمنا مرارا في هذه الدروس : أن الواجب على كل المسلمين في آيات الصفات : أن يعتقدوا ثلاثة أسس كلها في ضوء القرآن العظيم ، فمن اعتقد الأسس الثلاثة كلها لقي ربه مسلما على محجة بيضاء ، ومن أحل بواحد منها وقع في مهواة قد لا يتخلص منها ، وهذه الأسس الثلاث :

أولها - وهو الأساس الأكبر للتوحيد ، وهو الحجر الأساسي لمعرفة الله الصحيحة ، والصلة بالله على أساس صحيح وثيق . هذا الأصل العظيم الذي هو أساس التوحيد ، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة صحيحة وثيقة - هو اعتقاد أن خالق السموات والأرض منزه غاية التنزيه عن أن يشبه شيئا من صفات خلقه ، أو ذواتهم ، أو أفعالهم . فهو " جل وعلا " العظيم الأعلى الذي لا يشبه شيئا من خلقه ، ومن الخلق حتى يتشبهوا من خلقهم ؟ أليسوا أثرا من آثار قدرته وإرادته ؟ كيف تشبه الصنعة صانعها ؟ لا . وهذا الأساس العظيم ، الذي هو أساس التوحيد ، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة صحيحة ، الذي هو تنزيه خالق السموات والأرض عن مشابهة الخلق ، بينه الله في آيات من كتابه ، كقوله : { ليس كمثله شيء } (الشورى : آية 11) { ولم يكن له كفوا أحد } (الإخلاص : آية 4) { فلا تضر بوا الله الأمثال } (النحل : آية 74) { هل تعلم له سميا } (مريم : آية 65) هذا أسا التوحيد الأكبر ، فإذا نظف الإنسان ضميره من نجاسة وتقدير كان سهلا عليه أن يؤمن بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه به رسوله صلى الله

عليه وسلم إيماناً مبنيًا على أساس التنزيه ، لأن كل البليات منشؤها من أقدار القلوب بنجاسات التشبيه ، فمن طهر قلبه على أقدار التشبيه ونجاساتها ، وعلم أن صفات الله بالغة من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينهما وبين صفات المخلوقين : سهل عليه أن يؤمن بالصفات ، لأنه يعتقد في معانيها التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق .

وهذان الأصلان اللذان بينهما الآن - اللذان هما : تنزيه الله عن مشابهة خلقه ، والإيمان بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله إيماناً مبنيًا على أساس التنزيه ، وعدم مشابهة الخلق - لم نقله من تلقاء أنفسنا ، وإنما قلناه في ضوء تعليم خالق السماوات والأرض في ضوء المحكم المنزل ، لأن الله لما قال : { ليس كمثله شيء } { أتبع ذلك بقوله : { وهو السميع البصير } (الشورى : آية 11) فإتيانه بقوله : { وهو السميع البصير } بعد قوله : { ليس كمثله شيء } فيه تعليم أعظم ، ومغزى أكبر ، وسر سماوي لا يخفى ، لا يبقى معه في الحق لبس ، لأنه قال : { وهو السميع العليم } بعد قوله : { ليس كمثله شيء } مع أن السمع والبصر - والله المثل الأعلى - من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات - والله المثل الأعلى - فكأن الله يقول : لا تتطع يا عبدي يا مسكين فتنفي عني صفة سمعي وبصري ، مدعياً أن المخلوقات التي تسمع وتبصر ، وأنتك إن أثبت لي سمعي وبصري كنت مشبهًا لي بالمخلوقات التي تسمع وتبصر . لا وكلا ! أثبت لي سمعي وبصري ، مراعيًا في ذلك الإثبات ، تنزيهياً ، وقولي قبله : { ليس كمثله شيء } فجميع الصفات من هذا الباب الواحد . فأول الآية - أعني : { ليس كمثله شيء } - يدل على التنزيه الكامل عن مشابهة المخلوقين من غير تعطيل ، وقوله : { وهو السميع البصير } يدل على الإيمان بالصفات إيماناً حقا على أساس التنزيه ، من غير تشبيه ولا تمثيل .

فالأساس الأول من هذه الأسس الثلاثة : هي تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم ، وذواتهم ، وأفعالهم .

الأساس الثاني : هو أن لا تكذب الله فيما أثنى به على نفسه ، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله { ء أنتم أعلم أم الله } (البقرة : آية 140) ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في حقه : { وما ينطق عن الهوى 3 أن هو إلا وحي يوحى 4 } (النجم : الآيتان 3 ، 4) .

فعلينا أولاً أن نطهر قلوبنا من أقدار التشبيه ، وأن ننزه خالق السماوات والأرض عن أن تشبه صفته صفة خلقه ، ثم إذا طهرنا القلوب من أقدار التشبيه ، ونزهنا خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق ، سهل علينا الإيمان بصفاته - صفات الكمال والجلال - إيماناً مبنيًا على أساس التنزيه ، وعدم المماثلة ، على

غرار { ليس كمثل شئ وهو السميع البصير } (الشورى : آية 11) .

الأساس الثالث من هذه الأسس : هو قطع الطمع عن إدراك الكيفيات ، لأن من أدرك كيفية الشئ فقد أحاط به ، والله يقول : { يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما 110 } { طه : آية 110 } .

فهذه الأسس الثلاثة التي هي : تنزيه الله عن مشابهة خلقه ، والإيمان بصفاته الثابتة في كتابه وسنة رسوله ، إيمانا مبنيًا على أساس التنزيه ، وقطع الطمع عن إدراك الكيفية . هذا معتقد السلف الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون . لا يفسرون صفات الله إلا بدليل جليل لائق منزّه عن الأقدار ومشابهة الخلق ، ولا ينفون عن الله ما أثبتته لنفسه ، بل يثبتونه له على أساس التنزيه ، على غرار : { ليس كمثل شئ وهو السميع البصير } (الشورى : آية 11) .

وأنا أؤكد لكم : أننا في هذه الدار - دار الدنيا - وسنرتحل جميعا منها إلى القبور ، ثم ننتقل من القبور إلى عرصات القيامة ، إلى محل المناقشة والسؤال عن الحقير والجليل ، فإذا جئتم الله وأنتم معتقدون هذه الأسس الثلاثة ، أؤكد لكم أنه لا تأتيكم بلية ، ولا ويلة ، ولا مشكلة ، ولا لوم ، ولا توبيخ من واحد منكم : لم تنزهني عن مشابهة المخلوقات ؟ لا ، وكلا . هذا التنزيه طريق سلامة محققة . ولا يقول الله لأحد منكم : لم أثبت لي ما أثبتته لنفسي ، أو أثبتته لي رسولي ؟ ولم تصدقني فيما أثبتت به على نفسي ؟ لا ، وكلا . فتصدق الله والإيمان بما قال على أساس التنزيه طريق سلامة محققة لا شك فيها . ولا يقول الله لواحد منكم : لم لا تدعي أن عقلك الضعيف المسكين محيط بكل صفاتي وكيفياتها ؟ لا ، وكلا .

فهذه الأسس الثلاثة في ضوء القرآن العظيم طريق سلامة محققة ، ولذا ما ثبت من رؤية الله بالأبصار نمره كما جاء ، ونعتقد انه حق على الوجه اللائق بكماله وجلاله ، المنزه عن مشابهة صفات المخلوقين من جميع النواحي .

إذا عرفتم هذا : فاعلم أن العلماء أجابوا عن استدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة على مذهبهم الباطل بأجوبة متعددة :

منها : أن معنى [لا تدركه الأبصار] (الأنعام : آية 103) كما جاء عن ابن عباس وجماعة من السلف : أن الإدراك المنفي هنا هو الإحاطة .

والمعنى : لا تحيط به الأبصار .

والإدراك قد يطلق على الإحاطة كثيرا ، كقوله : { أدركه الغرق } (يونس : لآية 90) أي : أحاط به من جميع جهاته . { إننا لمدركون } (الشعراء : آية 61) أي محاط بنا .

وعلى هذا فمعنى : { لا تدركه } أي : لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه في الجملة ، فالإدراك المنفي هو الإحاطة . والإحاطة لا يستلزم نفيها نفي مطلق الرؤية الثابت في الأحاديث المتواترة ، والآيات القرآنية . الوجه الثاني : أن معنى : [لا تدركه الأبصار] (الأنعام : آية 103) أي : لا تدركه في دار الدنيا ، بدليل قوله : في الآخرة { وجوه يومئذ ناظرة 22 إلى ربها ناظرة 23 } (القيامة : الآيتان 22-23) . فلما قيد نظرها إلى ربها بقوله : { يومئذ } أي : يوم القيامة ، عرفنا أن ذلك النظر مقيد بالقيامة ، وأن : [لا تدركه الأبصار] أي : في دار الدنيا .

وقال بعض العلماء : لو سلمنا ما يقوله المعتزلة من أن الإدراك : الرؤية ، وأن الآية عامة [لا تدركه الأبصار] فعمومها تخصصه آيات آخر بيوم القيامة : { وجوه يومئذ ناظرة 22 إلى ربها ناظرة 23 } (القيامة : الآيتان 22-32) وقوله : { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون 15 } (المطففين : آية 15) أي : بخلاف المؤمنين فليسوا بمحجوبين عن ربهم .

وقد تقرر في الأصول أن المفهوم يخصص العام ، سواء من كان مفهوما موافقة ، أو مفهوما مخالفة ، فمثال تخصيص العام بمفهوم الموافقة : قوله صلى الله عليه وسلم " لي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته " ومعنى قوله : " لي الواجد " يعني : ظلم الغني يحل عقوبته . يعني : بالحبس . وعرضه : بأن يقول : ظلمني ، ومطلني . وظاهر هذا العموم يشمل الوالد إذا مطلق دين ولده ، لأن لفظة " الواجد " يصدق بكل غريم موسر ، فيدخل فيه الأب ، إلا أن مفهوم الموافقة في قوله " فلا تقل لهما أف " (الإسراء : آية 23) يفهم منه : أن حبسه في دينه من باب أولى لا يجوز . فخصص الحديث بمفهوم الموافقة في الآية . ومثاله في مفهوم المخالفة : قوله صلى الله عليه وسلم : " في أربعين شاة شاة " . ظاهر عمومها : سواء كانت سائمة ، أو معلوفة ، فلما قال في الحديث الآخر : " في الغنم السائمة زكاة " خصص عموما " في أربعين شاة شاة " بمفهوم المخالفة في قوله : " في الغنم السائمة زكاة " . أي : فمفهومها : أن غير السائمة لا زكاة فيها . فيخصص بهذا المفهوم عموم : " في كل أربعين شاة شاة " ولذا يخصص عموما : [لا تدركه الأبصار] (الأنعام : آية 103) بمفهوم : { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون 15 } (المطففين : آية 15) أي بخلاف المؤمنين فليسوا محجوبين عن ربهم . وقد نص الله على ذلك في قوله : { وجوه يومئذ ناظرة 22 إلى ربها ناظرة 23 } (القيامة : الآيتان 22-23) وقوله : { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } (يونس : آية 26) ولا شك أن القرآن تخصصه السنة ، وأن السنة تخصص القرآن . فلو قلنا : إن عموم [لا تدركه الأبصار] عموم عام ، بمعنى : لا تراه الأبصار . فإنه تخصصه الأحاديث المتواترة عن النبي أن المؤمنين

يرونه يوم القيامة بأبصارهم ، ودلت عليه الآية المذكورة كما هو معروف .
وتخصيص الكتاب والسنة معروف .

فمثال تخصيص القرآن بالقرآن : تخصيص قوله : { والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء } (البقرة : آية 227) في قوله جل وعلا : { وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن } (الطلاق : آية 4) فالمطلقة الحامل تخصص من القروء بوضع الحمل ، وكما خصص منه المطلقة قبل الدخول بقوله : { فما لكم عليهن من عدة تعتدونها } (الأحزاب : آية 49) ومعلوم أن تخصيص الكتاب بالسنة كثير ، ولذا خصص قوله تعالى : { وأحل لكم ما وراء ذلكم } (النساء : آية 24) بقوله : " لا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها " الحديث . وخصص قوله : { يوصيكم الله في أولادكم } (النساء : آية 11) بأولاد الأنبياء فلا يرثون ، والولد الكافر فلا يرث ، والولد الرقيق فلا يرث . كل ذلك بالسنة ، وهذا معروف .

فمعنى [لا تدركه الأبصار] (الأنعام : آية 103) أو : لا تحيط به الأبصار ، أو : لا تدركه الأبصار في الدنيا ، ولكنها تراه في الآخرة .

واختار غير واحد : أن الإدراك هنا المنفي معناه : الإحاطة . أي : لا تحيط به الأبصار ، ولا ينفي أنها تراه ، ولكن لا تحيط به ، لأنه لا يحيط به شيء ، وهو محيط بكل شيء ، وفي الحديث : " لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنين على نفسك " فكما أن المؤمنين يعلمون صفات ربهم - صفات الكمال والجلال - ولا يحيطون بكيفية كنهها فكذلك يرونه يوم القيامة بعيونهم ولا تحيط به أبصارهم .

والحاصل هو ما قدمناه : أن التحقيق في رؤية الله بعيون الرؤوس بالأبصار انها جائزة عقلا في الدنيا والآخرة ، ممتنعة شرعا في الدنيا ، جائزة وواقعة عقلا في الآخرة بالأحاديث المتواترة ، والآيات القرآنية كما بينا .

وقوله : [لا تدركه الأبصار] الأبصار : جمع بصر ، ولعلماء اللغة حدود متقاربة في معنى البصر : قال بعضهم : البصر : العين ، إلا أنه مذكر وقال بعضهم : البصر : حاسة الرؤية . وقال بعضهم : البصر : حس العين . أي : إحساسها الذي تدرك به المرئيات . وقال بعضهم : البصر : هو الجوهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة الرؤية ترى به المبصرات . معناه : أن هذا البصر الذي في العين - المعنى القائم فيها ، الذي تدرك به المبصرات - لا يحيط بخالق السموات

تناقض القرآن لأنه مرة يثبت الرؤية كما في قوله : ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ** ﴾ (٢٢) إِلَى

رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿ **القيامة: ٢٢ - ٢٣** ﴾ ومرة ينفي . واستدل بها المعطلة على نفي

صفة الرؤية ؛ فقالوا : بأن الله لا يرى كما تقوله الجهمية والمعتزلة وطوائف .

مع أن هذه الآية ليس فيها دلالة على نفي الرؤية لأنها إنما نَفَتِ الإدراك والإحاطة ولم تنفِ مجرد الرؤية . وأجاب آخرون : بأن المراد بالآية في الدنيا .

ومثله استدلال بعضهم بقوله تعالى : ﴿ **لَنْ تَرِنِي** ﴾ الأعراف: ١٤٣ في هذه المسألة.

– **الموقف الثاني** : موقف العلماء الراسخين يتجلى موقفهم في رد المتشابه إلى المحكم ، فينفون المعنى غير المقصود لله ويقولون بأن الله لم يرد هذا المعنى ، ومن أمثله لما استدلوا بقوله : ﴿ **لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ﴾ الأنعام:

والأرض وإن كانوا يرونه ، كما جاء في الآيات القرآنية .

{ وهو { جل وعلا { يدرك الأبصار } (الأنعام : آية 103) أي : يحيط بها علما وبصرا .

وهذه الآية تدل على ان الخلق لا يحيطون بكيفية البصر ، ولا يعلمون كيفية هذا النور ، وحقيقة هذا النور

الذي جعله الله في العين تبصر به المرئيات ، لا يبصر الإنسان بيده ، ولا بأنفه ، ولا برجله ، وإنما يبصر

بخصوص عينه . فهذا المعنى الذي أودعه الله في العين لا تحيط الناس بكنهه كلفيته ، ولا حقيقته ، والله)

جل وعلا (يدركه ، أي : يحيط به ، ويراه ، ويعلم حقيقته (جل وعلا) . وهذا معنى قوله : [لا تدركه

الأبصار وهو يدرك الأبصار] . اهـ

١٠٣ قالوا : عندنا آية محكمة وهي قوله : ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ** ^(٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ^(٢٣) ﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٣ ، وقوله عز وجل : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجْرُونَ** ^(١٥) ﴾ **المطففين: ١٥** في الفجار مما يدل على أن الأبرار لا يحجبون عن رؤية الله جل وعلا .

وقد ذكر الله موقف الراسخين فقال : ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ء** ﴾ **آل عمران: ٧** أي آمننا بالمتشابه وأرجعناه إلى المحكم ، ﴿ **كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا** ^(١٥) ﴾ **آل عمران: ٧** المحكم والمتشابه كله من عند الله فنرد المتشابه إلى المحكم فنفسر المتشابه بمدلول المحكم ، لأن القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا تضاد بعضه يفسر بعضه الآخر .
وقد ذكر المؤلف أمثلة لهذا :

1- المثال الأول: في من فسر قوله: ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ **المائدة: ٦٤** بأنها

يدان مماثلتان لأيدي المخلوقين، فقال: هذه الآية لا تدل على المماثلة.

2- ومثل بمثال آخر في قوله جل وعلا : ﴿ **وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ**

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ^(٧٨) ﴾ **النساء: ٧٨ - ٧٩** ، ففي الآية الأولى قال : ﴿ **وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ**

عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ^(٧٨) ﴾ **النساء: ٧٨** فنسبها إلى الله ، في الآية الثانية قال : ﴿

وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ^(٧٩) ﴾ **النساء: ٧٩** فاستدلوا بهذا إما على زندقتهم

وقولهم بأن القرآن يتناقض ، وإما على عقيدة فاسدة بأن العبد يخلق فعل

نفسه كما يقوله المعتزلة أو على غير ذلك من العقائد المناقضة لها .
وأجاب المؤلف : بأن المراد بكل آية مغاير للمراد بالآية الأخرى ؛ فإن
 قوله : ﴿ **وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** ﴾ أي فبسببك لأن الله جل وعلا عادل
 لا يتزل عقوبة بأحد من الخلق إلا إذا كان المصاب بمصيبة مستحق لهذه
 العقوبة ، ومن هنا قول بعضهم بانتقاد من قال : المصائب تنزل بسبب
 الذنوب لأن هذا تهجم على الآخرين ، نقول : ليس هذا تهجما ، بل هذا
 من تزيه الله عن الظلم ، ولا يعني هذا نقصان درجة من أصابته المصيبة ،
 بل قد يعني علو درجته لأن الله أراد أن يعاقبه في الدنيا ليسلم من عقوبة
 الآخرة ، ومن هنا قال **صلى الله عليه وسلم** : [من يرد الله به خيرا يُصَب
 منه] (45).

فالمقصود أن قوله : ﴿ **وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** ﴾ يعني فبسببك ، وقوله
 : ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ** ﴾ النساء : ٧٨ ، أي أن الله هو الذي خلقها وهو الذي
 قدرها لكنها بسبب العبد.

ومثل لذلك بقوله : ﴿ **فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ** ﴾ يونس : ٩٤ بأنه قد يفهم
 من هذه الآية أن النبي **صلى الله عليه وسلم** كان شاكا ، وهذا فهم
 خاطئ ؛ بل النبي **صلى الله عليه وسلم** ليس شاكا في هذا ، فإن الله
 عزوجل قد نفى عنه الشك وهو قد نفاه عن نفسه قال : [**أنا أعلمكم**
بالله وأتقاكم له] (46) .

(45) - رواه البخاري : كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض - حديث : 5329 .

(46) - رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا أعلمكم "

وهناك جواب آخر بأن المراد بلفظة الشك الاحتمال المجرد ، يعني الوسوس التي تلقى في النفوس بدون أن تؤثر في النفس ، فإن هذه الوسوس قد تسمى شكاً ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : [نحن أحق بالشك من إبراهيم] (47) يعني أنه كما وردت هذه الوسوس من الشيطان لإبراهيم قد ترد إلى نفوسنا ، لكنها لم تؤثر في نفسه عليه السلام .

ولا يمتنع أن ينهى الإنسان عن فعلٍ لم يفعله بعد ، يقال : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴾ البقرة: ١٤٧ لا يعني أنه كان من المتمرين ، كما يقال للمؤمنين : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ الإسراء: ٣٢ وهم لم يحصل منهم زنا . ويقال لهم : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِإَبْطَالٍ ﴾ النساء: ٢٩ ينهى بهذا اللفظ حتى الأتقياء الذين لم يقع منهم هذا الفعل.

حديث: 20 ، بلفظ : " إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا " .

(47) - أخرجه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله عز وجل : ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ

دخلوا - حديث: 3208 ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة -

حديث: 242 .

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان :

أحدهما : حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل ، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات ، لكننا لا ندرك حقائقها ، وكيفية لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝١١٠ ﴾ طه: ١١٠ ، وقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٣ ﴾ الأنعام: ١٠٣ ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥ ﴾ طه: ٥ كيف استوى قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه .

النوع الثاني : نسبي وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض ، فيكون معلوماً للراسخين في العلم دون غيرهم ، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه ؛ لإمكان الوصول إليه ، إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس ، قال الله تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨ ﴾ آل عمران: ١٣٨ ، وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ۝٨٩ ﴾ النحل: ٨٩ وقال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ لَهُ ۝١٨ ﴾ ثم إن

عَلَيْنَا يَوْمَهُ ﴿١٩﴾ الْقِيَامَةِ: ١٨ - ١٩ ، وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ النساء: ١٧٤ .

وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى: ١١ حيث اشبهه على أهل التعطيل ، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى ، وادعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة ، واعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له ، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ النساء: ٩٣ حيث اشبهه على الوعيدية ، ففهموا منه أن قابل المؤمن عمدا مخلد في النار ، وطرردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر ، واعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى .

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ الحج: ٧٠ حيث اشبهه على الجبرية ، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله ، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه ، واعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة ، وأن فعل العبد نوعان : اختياري ، وغير اختياري .

والراسخون في العلم أصحاب العقول ، يعرفون كيف يخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى ، فيبقى القرآن كله محكما لا اشتباه فيه .

شرح مبحث : أنواع التشابه في القرآن

تقدم معنا أن التشابه الخاص قد يراد به ما لا يعرف معناه، وهو الذي سماه المؤلف هنا التشابه الحقيقي.

ومن أمثله : كيفية الصفات بالنسبة للمخلوق هذا لا يعرفون معناه ولا يمكن أن يتوصلوا إلى معناه وهم في الدنيا ، فسامه المؤلف تشابها حقيقيا ، و الجمهور يسمونه يعدونه في قسم ما لا يعرف معناه ، ويقولون : القرآن لا يوجد فيه لفظ لا يعرف معناه من جميع الجهات ، بل له جهات يعرف معناه منها و جهات لا يعرف معناه منها .

فآيات الصفات يُعرف مدلولها اللغوي ويثبتون المدلول اللغوي بهذه الآيات، لكن كيفية الصفة لا يعرفونها فيتوقفون فيها، لأن الله لا يخاطب الناس بألفاظ لا يمكن أن يعرفوها، لأن هذا يناقض الحكمة من مخاطبة الناس بهذه الآيات، إذن ما لفائدة منها ؟ والله عزوجل متره عن العبث .
وأما النوع الثاني سماه المؤلف التشابه النسبي ويدخل فيه المعنيان الآخران، وهو تحميل النص ما لا يحتمله من المعاني، والمعنى الآخر: حمل اللفظ على غير مراد الله به هذا من التشابه النسبي.

تقدم معنا أن أهل العلم لا يجيزون حمل اللفظ على غير مراد الله ، فلا يفسرون اللفظ بغير مدلوله لأن هذا من القول على الله بلا علم ، وبالنسبة للألفاظ يفسرونها بمراد الله منها بضمها إلى النصوص الأخرى الواردة في ذلك الباب ، فهم ينظرون نظر صاحب العينين وليس نظرهم كنظر الأعور ينظر إلى جهة دون أخرى .

و من أمثلة الضلال في هذا الباب: آيات القدر؛ فإن هناك آيات تثبت المشيئة للعبد ففهم منها المعتزلة نفي تعلق أفعال العباد بمشيئة الله، وهذا تحميل للفظ ما لا يحتمله من المعاني.

وفي المقابل قال الأشاعرة بأن: النصوص الدالة على إثبات مشيئة الله تنفي أن يكون للعبد مشيئة، وهذا من تحميل اللفظ ما لا يحتمله من المعاني.

وأما أهل السنة فأثبتوا مدلول اللفظين؛ اللفظ لدال على أن للعبد مشيئة، واللفظ الدال على أن لله مشيئة، وربطوا مشيئة العبد بمشيئة الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ^٤ **الإنسان: ٣٠**، فأثبت للعبد مشيئة وأثبت لله مشيئة وربط مشيئة العبد بمشيئة الله.

ومثل أيضا المؤلف لها بالنصوص الواردة في باب حكم أهل الكبائر؛ فإن المرجئة نفوا مدلولها، وقالوا بأن: صاحب الكبيرة كامل الإيمان لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **[من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة]** (48) قالوا: فهو كامل الإيمان، إيمانه كإيمان أبي بكر وعمر وإيمان جبريل وميكائيل.

وفي المقابل جاء الوعيدية من المعتزلة والخوارج فنظروا إلى نصوص الوعيد كما في قوله صلى الله عليه وسلم: **[لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن]**

(48) - أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب في التلقين - حديث: 2725، وصححه العلامة الألباني

في صحيح الجامع: 6479.

، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن [(49) قالوا : فدل ذلك على أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن .

وأما أهل السنة فجمعوا النصوص واستدلوا بها جميعا وردوا المتشابهة إلى المحكم ، فقالوا : النصوص المثبتة للإيمان تثبت أصل الإيمان ، فلم يزل منهم أصل الإيمان ، والنصوص النافية للإيمان تنفي كمال الإيمان ، وبهذا كان أهل السنة أحظى بأن تدل جميع الأدلة على مذهبهم وهم أسعد بالدليل في مثل هذه المسائل ، نعم .

(49) - أخرجه البخاري : كتاب الحدود ، باب السارق حين يسرق - حديث: 6412 ، ومسلم : كتاب

الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة - حديث: 111 .

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومشابه

لو كان القرآن كله محكما لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقا وعملا لظهور معناه ، وعدم المجال لتحريفه ، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ولو كان كله متشابها لفات كونه بيانا ، وهدى للناس ، ولما أمكن العمل به ، وبناء العقيدة السليمة عليه ، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات ، يرجع إليهم عند التشابه ، وآخر متشابهات امتحانا للعبد ، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى ، وما كان من عند الله فهو حق ، ولا يمكن أن فيه باطل ، أو تناقض لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ **فصلت: ٤٢** ، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ **النساء: ٨٢** .

وأما من في قلبه زيغ ، فيتخذ من المتشابه سبيلا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام ، ولهذا تجد كثيرا من المنحرفين في العقائد والأعمال ، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة .

شرح مبحث : الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم

ومتشابه

نعم ، قد يقول قائل : وجود الآيات المتشابهة يؤدي إلى ضلال الخلق وابتعادهم عن الصراط لمستقيم ، فلماذا وُجد في القرآن ما هو متشابه ؟ وجود المحكم لا إشكال في وجوده فهو يقرر العقائد والأحكام على أكمل الوجوه وأتمها ، لكن الذي قد يستشكله بعض الناس وجود المتشابه .
والجواب عن هذا أن يقال: إن وجود المتشابه في القرآن له حكم عظيمة:

– أولها : اختبار العباد بحيث يختبرهم الله عزوجل في أمور من يتبعون المتشابه ومن يكون من الراسخين في العلم فيرد المتشابه إلى المحكم .
 – والحكمة الثانية من حكم وجود المتشابه : إرجاع الناس إلى علماء الشريعة ، فإنه عندما يوجد عند العبد آيات متشابهة يشرع له أن يرجع إلى علماء الشريعة ليسألهم عن هذا التشابه الذي وقع لديه ، ولهذا المعنى أثنى الله على الراسخين في العلم في باب المحكم والمتشابه ، مما يشعر بأهمية الرجوع إليهم .

– والأمر الثالث من حكمة وجود المتشابه : كثرة ثواب أهل العلم

لردهم على أهل الزيغ والضلالة عند استدلالهم بالآيات المتشابهة ، فلا شك أن رد تحريف المحرفين وتأويل المبطلين من أفضل القربات التي يتقرب العباد بها إلى ربهم جل وعلا .

– أيضا من الحكم في هذا : اشتغال الناس بالعلم مع رجوعه إلى

النصوص عندما يستشكلون معنى آية من الآيات يبحثون عن بقية

النصوص الواردة في الباب ليجمعوا بينها وينظروا فيها ، فيكون هذا من أسباب بقاء العلم انتشاره في الأمة ، وبهذا يحصل تباحث بين الناس في مسائل العلم وتناقش ومراجعة بعضهم لبعض فيكون من أسباب رسوخ العلم في الناس ، إذ لو كانت الآيات ليس فيها تشابه لركد الناس ولم يشتغلوا بطلب العلم والجواب عن شبهات المشبهين الذين يستدلون بالمتشابه من الآيات ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ **آل عمران: ٧** لفظة التأويل يراد بها ثلاثة معانٍ :

1- الأول : حقيقة ما يؤول الكلام إليه ، وهذا مما ينفرد الله بعلمه .

2- والثاني : التفسير هذا يعلمه علماء الشريعة.

3- والثالث : صرف اللفظ عن ظاهره، صرف اللفظ عم معناه

الظاهر، وهذا المعنى إنما سُمِّيَ تأويلاً عند المتأخرين، وأما الأوائل فلا يسمونه تأويلاً وإنما إذا دل عليه الدليل فهو تفسير صحيح، أما إذا لم يدل عليه الدليل فهو من تحريف النصوص.

و بناء على هذا وقع الاختلاف في القراءة في قوله: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ ﴾ **آل عمران:**

٧ هل الواو عاطفة فيكون الراسخون يعلمون التأويل إذا كان التأويل هو

التفسير ؟ أو أن الواو استئنافية فيكون المراد بالتأويل حقيقة ما يؤول الكلام إليه - وهو الأظهر - ؛ لأن كلمة الراسخون جاء بعدها خبر هو

جملة : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ **آل عمران: ٧** ؟

موهم التعارض في القرآن

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبتة لشيء والأخرى نافية فيه.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون

إحداهما كذبا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝ (٨٧)﴾ النساء: ٨٧، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝ (١٢٢)﴾

النساء: ١٢٢ ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حكمي؛ لأن

الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى: ﴿

نُنسِهَا نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۝ (١٠٦)﴾ البقرة: ١٠٦ وإذا ثبت النسخ كان حكم

الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاول الجمع بينهما، فإن لم

يتبين لك وجب عليك التوقف، وتكل الأمر إلى عالمه.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، بينوا الجمع

في ذلك. ومن أجمع ما رأيت في هذا الموضوع كتاب "دفع إيهام

الاضطراب عن أي الكتاب" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله

تعالى.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ البقرة: ٢ وقوله فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ البقرة: ١٨٥ فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين ، وفي الثانية عامة للناس ، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع ، و الهداية في الثانية هداية التبيان والإرشاد .

ونظير هاتين الآيتين ، قوله تعالى في الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ القصص: ٥٦ وقوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ الشورى: ٥٢ فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ آل عمران: ١٨ وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ آل عمران: ٦٢ وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ الشعراء: ٢١٣ وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابِعٍ﴾ هود: ١٠١ ، ففي الآيتين الأولى نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخرين إثبات الألوهية لغيره .

والجمع بين ذلك أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق ، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ الحج: ٦٢ .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ط﴾ الأعراف: ٢٨

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا

تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ الإسراء: ١٦ ففي الآية الأولى نفي أن يأمر الله تعالى

بالفحشاء ، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق . والجمع بينهما

أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي ، والله تعالى لا يأمر شرعا

بالفحشاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي

الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ عِظْمُكُمْ لَكُمْ

تَذَكُّرًا ﴿٩٠﴾ النحل: ٩٠ والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني ،

والله تعالى يأمر كونا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته كقوله تعالى: ﴿

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ يس: ٨٢ .

ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفا

شرح مبحث: موهم التعارض في القرآن

المراد بالتعارض التقابل مع الاختلاف، ويراد به هنا ما يُتَوَهَّم فيه أن آيتين من القرآن قد اختلفتا في المدلول بحيث دلت إحداهما على نقيض ما دلت عليه الآية الأخرى، ولا يكون هناك تعارض إلا بثلاثة شروط:

– الشرط الأول : الاتحاد في الزمان ؛ فإن كانت إحدى الآيتين

متعلقة بزمان والأخرى تتعلق بزمان آخر فلا تعارض بينهما ، ومن أمثلة

ذلك قوله جل وعلا : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ الأنفال: ٦٥ - ٦٦ وفي الآية الأولى قال عن

المائة ﴿ يَغْلِبُوا أَلْفًا ﴾ الأنفال: ٦٥ ، وفي الآية الثانية قال : ﴿ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴾ الأنفال: ٦٦ وهنا لا تعارض لأن زمان الآية لأولى مغاير لزمان الآية الثانية .

– الشرط الثاني: صحة الدلالة؛ بحيث يكون المعنى المأخوذ من الآيتين

معنى صحيح ليس طريق استنباطه من الطُّرُق الباطلة.

ومن أمثلة ذلك ما لو قال قائل : إن قوله عز وجل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ الفتح:

٢٩ يعارض قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ البقرة: ٢٥٣ وقوله : ﴿ وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا ﴾ الروم: ٤٧ لأن قوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يقتضي ألا

رسول إلا محمد .

فنقول: الدلالة هنا ضعيفة لأنها مبنية على مفهوم اللقب، المراد بمفهوم اللقب: تعليق الحكم باسم ذات، ومحمد اسم ذات فلما علق به الرسالة لا يصح أن نحصر الرسالة فيه، ومن ثم لا تعارض هنا لماذا؟ لأن وجه الاستدلال بإحدى الآيتين ليس صحيحا إذ لا بد في التعارض من صحة الدليلين وصحة وجه الاستدلال.

- الشرط الثالث : تقابل الدليلين في النفي والإثبات، أما إذا كان

الدليلان لا يتقابلان في النفي والإثبات فإنه لا يوجد تعارض.

ومن أمثلة ذلك لو قال قائل : إن الله عزوجل يقول عن مريم : ﴿ **يَتَأَخَتَ**

هَرُونَ ﴾ مريم: ٢٨ مع أن مريم بينها وبين هارون قرون .

فيقال : إن قوله : ﴿ **يَتَأَخَتَ هَرُونَ** ﴾ لا يعني مقابلة الأدلة الأخرى الدالة

على ما بين مريم وموسى وهارون من السنين ، إذ يحتمل أن المراد هارون

آخر كما ورد في ذلك الخبر ، أو أن المراد يا شبيهة هارون في الطهر كما

قال به بعض المفسرين ، ومن ثم لا يكون هناك تعارض لعدم تقابل

الدليلين بالنفي والإثبات .

التعارض على نوعين :

* النوع الأول: التعارض الحقيقي كما لو جاءك خبران أحدهما يثبت

وجود محمد في مكان ما والآخر ينفيه في زمان واحد فهذا تعارض

حقيقي، ويلزم عليه وجود كذب مخالفة للحق في أحد الخبرين أو في

كليهما.

و التعارض الحقيقي لا يوجد في كلام الله ولا في كلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

* والنوع الثاني : التعارض المتوهم، بحيث يظن بعض الناس وجود تعارض بين دليلين، ولا يهتدي إلى كشف ذلك التعارض.

ما الدليل على أن آيات القرآن لا يوجد فيها تعارض حقيقي هناك أدلة كثيرة:

- من تلك الأدلة قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٨٧)

٨٧ و من مقتضى صدق كلام الله ألا يوجد فيه تعارض، وقال تعالى: ﴿

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢) .

- الدليل الثاني : أن الله عزوجل قد أخبر أن هذا القرآن محكم وأنه قد فصل ، ومن مقتضى إحكامه وتفصيله ألا يوجد فيه تعارض وتناقض

كما قال تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِذْ هُمْ أَصْحَابُ الْكُوفَةِ ﴾ (هود: ١)

- الدليل الثالث : أن الله عزوجل قد أخبر أن الكتاب يصدق بعضه

بعضا ومن مقتضى ذلك عدم وجود التعارض الحقيقي فيه قال تعالى: ﴿

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا ﴾ (الزمر: ٢٣) يعني يصدق بعضه بعضا .

- دليل آخر قوله جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوْجَدُوا فِيهِ اٰخْتِلَافًا كَثِيْرًا ﴿٨٢﴾ النساء: ٨٢ فلما لم يوجد الاختلاف دل على أنه من عند الله ، ومن مقتضى ذلك ألا يعارض بعضه بعضا .
- و يدل على هذا أن العرب حرصوا على رد هذا القرآن وقدحوا فيه بأشياء إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقولوا بوجود تعارض بين بعضه مع بعض، ودل هذا على أنه لا يوجد تعارض في آياته حقيقي.

إذا وُجِدَ التعارض فلا بد أن يكون هناك شرط منتفي من شروط التعارض السابقة ، وإذا انتفى أحد الشروط السابقة كان التعارض متوهما وليس حقيقيا .

ما هو موقف المفسر وطالب العلم عند وجود التعارض ؟

- إذا توهم المفسر وجود تعارض بين الآيات فحينئذ لا بد أولا من إعادة النظر في الآيات التي يتوهم وجود التعارض فيها ، ليتعرف هل وجه الدلالة صحيح فيها أو لا ، فإن كثيرا مما يظن فيه وجود العارض لا يكون الأمر كذلك ، ومن أمثلة هذا : قوله جل وعلا: ﴿ اِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ اَنْتُمْ لَهَا وَرِدُوْنَ ﴾ ﴿٩٨﴾ الأنبياء: ٩٨ مع أن الله عزوجل قد أثنى على الملائكة وأثنى على عزير وأثنى على المسيح عيسى بن مريم وهم يعبدون من دون الله ، ولذلك جاء ابن الزبعرى للنبي صلى الله عليه وسلم واعترض بهذا الاعتراض فلا يدعي أن القرآن فيه تعارض ، فترل قوله تعالى : ﴿ اِنَّ الَّذِيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنٰى اُولٰٓئِكَ عَنَّا

مُبَعَّدُونَ ﴿١٠١﴾ الأنبياء: ١٠١ ، وإذا تأمل الإنسان في هذا الاعتراض وجده اعتراضا باطلا ؛ فإن الآية : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ** ﴾ والأصل في ما الموصولة أن تطلق على غير العاقل ، ولا يمتنع أن يؤتى باللفظ العام باعتبار الأغلبية ، ثم يأتي دليل آخر فيخصص ذلك اللفظ العام ويجعل بعض أفراده لا تدخل في حكمه ، ولا زالت العرب تتكلم بمثل ذلك ، ويحمل كلام الإنسان العام على الخاص .

– الوجه الثاني من أوجه التعامل عند توهم التعارض في القرآن أن نحاول الجمع بين الدليلين بأن نحمل أحد الدليلين على محمل ونحمل الدليل الآخر على محل آخر. وهذا له أوجه متعددة منها التخصيص والتقييد ومنها تأويل اللفظ عن ظاهره إلى المعنى المرجوح ونحو ذلك.

ومن أمثلة هذا مثلا قوله جل وعلا: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ﴾ البقرة: ٢٣٤ فهذه الآية في المتوفى عنها ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ الطلاق: ٤

فجعل عدة الحامل بوضع الحمل ، فقد يتوهم أنه يوجد تعارض بين الدليلين في الحامل المتوفى عنها هل تعدد بأربعة أشهر وعشرا ؟ أو أنها تعدد بوضع الحمل ؟ فنجمع بينهما بواسطة التخصيص فنقول: إن قوله

تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ** ﴾ هذا في غير الحامل، والحامل نخصصها بواسطة قوله تعالى : ﴿ **وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ .

– الطريقة الثالثة : إذا لم نتمكن من الجمع وعرفنا التأريخ فحينئذ

يتبين لنا أن المتأخر في التزول يكون ناسخا للمتقدم ، وقد مُثِّلَ لهذا بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ^ط ﴾ البقرة: ٢٣٤ مع قوله جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ^ع ﴾ البقرة: ٢٤٠ ، وفي الآية الأولى جعل الأمد أربعة أشهر وعشرا ، وفي الآية الثانية جعل الأمد حولا كاملا ، فقد قيل بأن آية الحول متقدمة في التزول فتكون منسوخة . وهناك قول يقول : بأن آية الأربعة أشهر هذا في العدة و الإحداد ، وآية الحول في السكنى . والجمهور على القول الأول في إثبات النسخ في ذلك .

– هناك طريقة أخرى يقول بها بعض أهل العلم ألا وهي الترجيح بين الدليلين ، وليس المراد الترجيح بين الآيتين من جهة ثبوتهما ، وإنما المراد به الترجيح بحسب وجه الدلالة ، فإن وجه الدلالة تتفاوت رُبُّهُ وبعضها أقوى من بعض .

ومن أمثلة ذلك: ما لو كان هناك دليان يدلان على مدلول واحد؛ أحدهما يدل عليه بمفهوم المخالفة والآخر يدل عليه بواسطة المنطوق، فحينئذ نقول: إن دلالة المنطوق مُقَدِّمَةٌ.

ومن أمثلة هذا قوله تعالى : ﴿ كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ^ط الْحَرْءُ بِالْحَرْءِ وَالْعَبْدُ بِالْأَنْثَى وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى ^ع ﴾ البقرة: ١٧٨ فإن منطوق الآية القصاص للأنثى من الأنثى .

فقد يقول قائل: تدل الآية على أن الأنثى لا تقتل إلا بالأنثى وأنه لو قتلت

أثنى رجلا ذكرا لم تُقتل به.

فنقول: هذا المفهوم مفهوم مخالفة تعارض مع منطوق قوله تعالى: ﴿وَكَبْنَا

عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ المائدة: ٤٥ وقوله: ﴿كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي

الْقَتْلِ﴾ البقرة: ١٧٨ وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ البقرة: ١٧٩ ومن

هنا نرجح الآيات التي دلت على هذا الحكم بواسطة المنطوق على ما يأخذ من الآية الأخرى بواسطة مفهوم المخالفة .

إذا لم يتمكن الإنسان من هذه الطرائق السابقة فإنه يجب عليه أن يتوقف وأن يَكِلَ علم ذلك إلى الله عزوجل ، فيكون حينئذ من الأمور المتشابهة عليه .

ومعرفة هذا النوع وكيفية الجمع يفيد المرء كثيرا على أهل الشبهات الذين يطعنون في دلالة القرآن ، ولا يزال في كل عصر من يدعي وجود التناقض ، مثال ذلك : في عصرنا الحاضر يجد الإنسان كتابات كثيرة يدعي كتابها أن في القرآن تناقضا نتيجة جهلهم وعدم فهمهم للقرآن وعدم معرفتهم بمعانيه .

وأضرب لذلك مثلا : قال قائل إن في القرآن تعارضا لأن الله عزوجل

يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾ الحجرات: ١١ فنهى عن

السخرية مع أنه قال في موضع آخر: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ الزخرف: ٣٢ فأجاز لهم أن يسخر بعضهم من

بعض متى كانوا أرفع منهم .

كلام صحيح ولا خطأ ؟ خطأ ، من أين نشأ ؟ من عدم فهم القرآن من

تفسير كلام الله على غير مراد الله ، لأن كلمة ﴿سُخْرِيًّا﴾ يراد بها أن يعمل بعضكم لبعض من أجل التسخير وليست من باب السخرية .

ولذلك انبرى الأئمة للكتابة في هذا الباب والتعريف بعدم وجود التناقض في القرآن ولا التعارض . وقد حاول بعض الأوائل أن يوهموا بوجود التعارض ، من أمثلة ذلك مثلاً يقول بعضهم : القرآن متعارض لأنه يجعل الله مرة واحدا كما في قوله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١) ومرة ثلاثة أو جمعا كما في قوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ (الحجر: ٩) حيث قال : ﴿نَحْنُ﴾ ، وتقدم معنا الجواب عن هذا في باب التشابه والإحكام .

ومن أمثلته أيضا قول بعضهم : إن الله عزوجل أثبت أن العباد ينظرون إليه في يوم القيامة بقوله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٣) ، وفيه في يوم القيامة بقوله : ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ (الأعراف: ١٤٣) أو في قوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣) وذلك ناشئ من عدم فهمه لمعنى الإدراك الذي يقتضي الإحاطة ، النفي للإحاطة وليس للرؤية المجردة ، وفرق بين الإحاطة وبين النظر إلى الله النظر إلى وجه الله .

وقد اعتنى الأئمة بالكتابة في هذا الباب وألفوا مؤلفات كثيرة، ومن أوائل من كتب في هذا الباب الإمام أحمد في الرد على الزنادقة فيما شكت فيه من تأويل القرآن، وهو كتاب عظيم النفع في هذا الباب.

وكتب ابن قتيبة كتاب عظيم : تأويل مشكل القرآن ، وكتب طوائف في هذا الباب ، ومن أجمع الكتب كتاب الإمام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

رحمه الله دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب .

أورد المؤلف أمثلة عديدة ، من أمثلة ذلك أن الله عزوجل قال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ النساء: ١٤ فأثبت الخلود .

قد يقول قائل: هذا يتعارض مع قوله: ﴿ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ (٢٣) النبي: ٢٣ التي تقتضي أن لبثهم أزمان.

فنقول : لا يوجد تعارض لأن الآية الأولى دلت بمنطوقها على الخلود ،

والآية الثانية لم تنف الخلود ، فالتعارض هذا متوهم وليس بحقيقي .

أورد له المؤلف أمثلة منها قوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) البقرة: ٢ يفهم منه بواسطة مفهوم المخالفة أنه لا يهتدي به غير المتقين ، ولذلك نجد أن الناس لا يهتدون بالقرآن لأن التقوى قلت في قلوبهم ، وإذا قلت التقوى في القلب حينئذ لا يهتدي العبد بالقرآن . بينما في آيات أخرى أثبت الله الهداية في القرآن لجميع الناس كما في قوله: ﴿ أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ هُدًى

لِّلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٨٥ .

والجمع بينهما أن يقال : هذه في نوع من الهداية يخالف النوع الآخر التي

في الآية الأخرى؛ ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) يراد بها هداية التوفيق والإلهام

والانتفاع ، بينما قوله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي هداية الدلالة والتوضيح

والإرشاد . ومثله في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ القصص: ٥٦ هنا

المنفي هداية التوفيق والانتفاع، بينما في قوله: ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ الشورى: ٥٢ هنا إثبات لهداية الإرشاد والدلالة .

ومثله النصوص الواردة في الشفاعة ؛ فهناك نصوص تنفي الانتفاع بالشفاعة ، وهناك نصوص تثبت ، نقول : النصوص المثبتة هي في الشفاعة لتي تكون لمن أذن الله للشافع ورَضِيَ عن المشفوع [له] ، والآيات التي تنفي الشفاعة في ما عدا ذلك .

مثل له المؤلف أيضا بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ آل عمران: ٦٢ فنفي اسم

الإله عن غير الله، بينما جاءت نصوص أخرى تثبت اسم الإله لغير الله

كما في قوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ هود: ١٠١ .

فنقول : نصوص الإثبات تشمل الأوهية الباطلة ، ونصوص النفي التي تقصر الألوهية على الله هي في الألوهية الحقة ، ولذلك نقول في تفسير

قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله .

دراسة هذا الباب مفيدة ولذيذة ، وتدرأ كثيرا من الشبهات عند الخلق ، ولذلك فإن من المناسب العناية بهذا الباب وهو دفع التعارض المتوهم في فهم آيات القرآن .

ما الفائدة من هنا الباب ودراسته ؟

هناك فوائد :

1- أول هذه الفوائد: فهم كلام الله على مراد الله بحيث لا تُنزل الآيات

القرآنية على غير مدلولها .

2- والفائدة الثانية : الرد على الزنادقة والمشبهة الذين يشبهون على

الناس .

3- والفائدة الثالثة : جعل العباد يعملون بمراد الله عزوجل ، لأن توهم

التعارض قد يثبط الناس عن التزام شرع الله ، ومن أمثلة ذلك : قد يقول

قائل إن قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۗ ﴾ آل عمران: ١٣٠

يفيد جواز أكل الربا إذا كان لفائدة واحدة ولم يكن فيه مضاعفة ،

فيجعل الناس يتركون إتباع الشرع في باب الربا ويتوجهون إلى المكاسب

الخبیثة . وعند الجمع بين هذه الآية والأخرى التي حرمت الربا مطلقا كما

في قوله : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۗ ﴾ البقرة: ٢٧٥ وقوله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٧٨ فحينئذ

نعرف مارد الله ونترك المكاسب الخبيثة .

ومثله أيضا في قوله عزوجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النحل: ٩

فإن بعض الناس يأتي بهذه الآية ليلبس على الناس ليتركوا الدعوة إلى الله ،

فيقول : لا فائدة من دعوتك لأن الله لو شاء لهداهم . بينما هناك نصوص

صريحة في القرآن في الأمر بالدعوة إلى الله كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل: ١٢٥

وكما في قوله : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ

اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف: ١٠٨ . فيقال : الهداية هداية التوفيق

إلى الله يهدي من يشاء ولكن العبد مأمور بفعل الدعوة وقد يهتدي بها

الناس وقد لا يهتدون .

ومثله أيضا قد يأتي أناس ويحاولون إبطال مشروعية الجهاد بالنصوص الواردة في ترك القتال وفي الأمر بالصبر ونحو ذلك، فيقال له : لا تعرض بينهما فإن قوله : ﴿ أَصْبِرُوا ﴾ آل عمران: ٢٠٠ لا يعارض قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ

إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ الشورى: ٣٩ ونحوه من النصوص .

فالمقصود أن دراسة باب التعارض المتوهم في الآيات القرآنية له فوائد عظيمة.

القسم

القسم الثاني : بفتح القاف والسين ، اليمين ، وهو : تأكيد الشيء
بذكر معظم بالواو ، أو إحدى أخواتها ، وأدواته ثلاث :

الواو - مثل قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ الذاريات: ٢٣
ويحذف معها العامل وجوبا ، ولا يليها إلا اسم ظاهر .

والباء - مثل قوله تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ﴾ القيامة: ١ ويجوز معها
ذكر العامل كما في هذا المثال ، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس
: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ص: ٨٢ ويجوز أن يليها اسم ظاهر
كما مثلنا ، وأن يليها ضمير كما في قولك : الله ربي وبه أحلف
لينصرون المؤمنين .

والتاء - مثل قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَشَأْنُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ النحل: ٥٦
ويحذف معها العامل وجوبا ، ولا يليها إلا اسم الله ، أو رب مثل : تا
رب الكعبة لأحجن إن شاء الله .

والأصل ذكر المقسم به ، وهو كثير كما في المثل السابقة . وقد يحذف
وحده مثل قولك : أحلف عليك لتجتهدن .

وقد يحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

النَّعِيمِ ﴿٨﴾ التكاثر: ٨

والأصل ذكر المقسم عليه، وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ﴿١﴾

التغابن: ٧ وقد يحذف جوازا مثل قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾

ق: ١ وتقديره ليهلكن .

و قد يحذف وجوبا إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في المغني ومثل له بنحو: زيد قائم والله، وزيد والله قائم.

وللقسم فائدتان :

إحداهما : بيان عظمة المقسم به .

والثانية: بيان أهمية المقسم عليه، وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب مترددا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب منكرا له.

شرح مبحث : القسم

نقرأ في هذا اليوم ما يتعلق بأقسام القرآن بمعنى القسم الموجود في القرآن . من أساليب القرآن القسم ، المراد بذلك تعظيم المقسم به وتأکید المقسم عليه ، وقد عرّف المؤلف القسم الذي هو اليمين بأنه تأكيد الكلام بذكر معظم بإحدى أدوات القسم الواو أو إحدى أخواتها . وأسلوب القرآن في القسم يشتمل على ستة أجزاء ، أسلوب القسم في القرآن يشتمل على أجزاء لا تخرج عن ستة :

– الأول : الرابط بين جملة القسم وغيرها من الجمل ، ومن أمثلة ذلك قوله عزوجل : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ ﴾ الحجر: ٩٢ فالرابط هنا حرف الفاء ، وهذا الرابط يربط جملة بجملة ، قد يكون من حروف العطف أو الإستئناف .

– القسم الثاني أو الجزء الثاني الركن الثاني منجمل القسم : العامل في القسم الذي يتعلق به حرف القسم ، وهو فعل أقسم وما مثله . من أمثله قوله تعالى : ﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ القيامة: ١ حيث ذكر العامل < أقسم > ، وقد يحذف العامل لكن بالنسبة لجمل القسم من جهة جواز الحذف أو وجوبه تختلف باختلاف حرف القسم ؛ فإذا كان القسم بالواو فلا بد من حذف العامل الذي هو فعل أقسم وما مثله ، وهكذا إذا كان القسم بالتاء أو كان القسم بالهمزة . أما إذا كان القسم بالباء فقد يذكر القسم وقد يحذف جوازا ، قد يحذف عامل القسم وقد يذكر .

- القسم الثالث من أقسام جملة القسم : حرف القسم ، حروف القسم أشهرها أربعة حروف ذكر المؤلف منها هنا ثلاثة وهي :

1- الواو وهي الغالبة وأم الباب ومن أمثله ذلك قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ الْعَصْر: ١ ، ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ الضحى: ١ ﴾ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴿١﴾

﴿ الصافات: ١ ، ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ يس: ٢ ، ﴿ وَالكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾

﴿ الزخرف: ٢ ونحو ذلك .

2- الحرف الثاني : حرف الباء ومن أمثله قوله عز وجل :

﴿ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ الْقِيَامَةِ: ١ ، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ص: ٨٢ .

3- والحرف الثالث حرف التاء ومن أمثله قوله تعالى :

﴿ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ ﴿الأنبياء: ٥٧ ، ﴿ تَاللَّهِ لَتُنَشِّئَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ النحل: ٥٦ ، ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ يوسف: ٩٥ .

4- والحرف الرابع همزة كما في الحديث : [آله ما أخرجك إلا

ذلك] (50).

وحروف القسم من حروف الجر تجر الأسماء التي تليها وتجعلها أسماء مجرورة ، ولا تدخل إلا على الأسماء فلا تدخل على الأفعال ولا على الحروف ، وهي مبنية لا تتغير حركتها بتغير موقعها الإعراب ، وهي

حروف فليس لها إعراب لأن الحروف لا محل لها من الإعراب وإنما ثمرتها في كونها مفيدة للقسم .

وحروف القسم قد تحذف ويدل السياق على أن الكلام للقسم ، ومن

أمثلة حذف حرف القسم قوله عزوجل : ﴿ لَتَرُونَ الْجِيبَ ﴿٦﴾ ثُمَّ

لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ التكاثر: ٦ - ٨
فهنا قسم دلّ عليه لام القسم .

– القسم الرابع من أقسام جملة القسم المقسم به : وقد يقسم بلفظ

الله كما في قوله : ﴿ تَأَلَّهُ ﴾ ، وقد يقسم من أسماء الله جل وعلا أو صفة

من صفاته كما في قوله : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ الذاريات: ٢٣ وقوله : ﴿

فَبِعِزَّتِكَ ﴾ ص: ٨٢ . وقد يرد في القرآن قسم بغير الله لتعظيم المقسم به

ولفت الأذهان إليه وبيان قدرة الله عليه ، ومن أمثله قوله عزوجل :

﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴿١﴾ ﴾ الصافات: ١ ، وقوله : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ ﴾ المرسلات:

١ ، وقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غُرُقًا ﴿١﴾ ﴾ النازعات: ١ ، وقوله : ﴿ وَالضُّحَى ﴿١﴾ ﴾

الضحى: ١ ، ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ ﴾ العصر: ١ ، ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا

﴿ الشمس: ١ - ٢ ﴾ كل هذا إقسام بغير الله ، ولا يقولنَّ قائل بأنه ما دام

أن الله أقسم بغيره فيجوز لنا أن نقسم بغير الله أو نقسم بما أقسم الله به ،

لماذا لا يجوز ؟ لأن الله عزوجل له أن يفعل ما لا يجوز لنا أن نفعله ،

ولذلك الكبرياء ممنوع منه في حقنا ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال

ذرة من كبرٍ ، وهو صفة من صفات الله كما قال: [الكبرياء ردائي] (51)
قال جل وعلا: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ الجاثية: ٣٧ .

ما الدليل على أنه لا يجوز أن يقسم بغير الله ؟
أدلة كثيرة منها قول النبي صلى الله عليه وسلم: [من كان حالفاً فليحلف
بالله أو ليصمت] (52) .

وقوله: [لا تحلفوا بأبائكم] (53) وقوله صلى الله عليه وسلم : [من
حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك] (54).

ما حكم الحلف بغير الله ؟ وهل يعد شركاً أو لا ؟
نقول : من يحلف بغير الله على ثلاثة أنواع :

1- النوع الأول: من جرى اليمين والقسم بغير الله على لسانه من

غير أن يقصده ولا أن يختاره، وإنما لكون التعود على الحلف بالنبي مثلاً

(51) - رواه الإمام أحمد في مسند أبي هريرة رضي الله عنه - حديث: 8714 ، وصححه العلامة الألباني
في صحيح الجامع حديث : 4311 .

(52) - رواه البخاري : كتاب الشهادات ، باب : كيف يستحلف - حديث: 2554 .

(53) - أخرجه البخاري : كتاب المناقب ، باب أيام الجاهلية - حديث: 3647 ، ومسلم : كتاب الأيمان
، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى - حديث: 3191 .

(54) - رواه الترمذي : الذبائح ، أبواب النذور والأيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما
جاء أن من حلف بغير الله فقد أشرك ، حديث: 1496 ، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة : 2042 .

تجري على لسانه من غير أن يقصدها.

ما حكمه ؟

نقول: من فعل ذلك فعليه إذا تذكر أن يقول : لا إله إلا الله ليكون ذلك من إعادة العبد إلى التوحيد في كلامه ونطقه ، وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [من قال واللات و العزى فليقل : لا إله إلا الله] (55) .

2- النوع الثاني: من أقسم بغير الله ولم يقم بقلبه تعظيم المقسم به،

فهذا لا يخرج من الملة وإنما هو من منافيات كمال التوحيد ومن أنواع الشرك الأصغر.

3- النوع الثالث: من حلف بغير الله وقد قام في قلبه تعظيم المقسم

به، فهذا شرك لأنه عبودية لغير الله، ومن صرف العبادة لغير الله فقد أشرك.

وقد قيل في تفسير قوله جل وعلا: ﴿ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ المائدة: ٨٩ عدد من الأقوال :

- القول الأول: أن المراد به احفظوا أيمانكم من الحلف بغير الله.

(55) - أخرجه البخاري : كتاب تفسير القرآن ، سورة البقرة - باب أفرأيتم اللات والعزى ،

حديث: 4582 ، ومسلم : كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب قوله : إن الإنسان ليطغى أن رآه

استغنى - حديث: 5112 .

- والقول الثاني: أن المراد به تطهير اليمين من الكذب،

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ المائدة: ٨٩ يعني من الكذب .

- والقول الثالث: أن المراد بالآية: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ المائدة:

٨٩ أي لا تبدلوهما في كل قضية فتحلفوا في كل مسألة .

- والقول الرابع: أن المراد احفظوا أيمانكم من الحنث في اليمين

وعدم الوفاء بها.

ولا يمتنع أن يكون الجميع مرادا بهذه الآية.

هل يجوز لنا أن نحلف بفعل من أفعال الله ليس من الصفات ولا من الأسماء ؟

نقول: لا يجوز ذلك على الصحيح من أقوال أهل العلم، ومن أمثلة ذلك لو قال: ومكر الله.

إذن عرفنا من أقسام أو من أجزاء أسلوب القسم: الرابط والعامل والحرف والمقسم به.

- القسم الخامس من أقسام هذه الجملة : لام القسم ، وهي اللام

التي تكون في جواب القسم ، وليس لها محل من الإعراب لأنها من

الحروف ، والغالب أن الجواب بعدها يكون فعلا ولا يكون جملة اسمية ﴿

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوَبَنَّهُمْ ﴾ ص: ٨٢ ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ ﴾ الحجر: ٩٢ ، ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ٦ التكاثر: ٦ والغالب في الفعل الذي يكون معها يكون مؤكداً بحرف التوكيد <النون> ، وليس لها محل من الإعراب ، وليست عاملة في الفعل الذي بعدها لا تؤثر عليه في الإعراب .

– الجزء الآخر من أجزاء القسم: المقسم عليه وهو الخبر الذي يراد توكيده، والغالب أن يكون جملة اسمية وقد يكون معها حرف توكيد مثل <إن> . والمتبع للقرآن يجد أن المقسم عليه على أنواع كثيرة ، ولكنه لا يقسم إلا على قضية من القضايا الكبرى خصوصاً التي قد يقع لسامع القرآن أو تاليه شكوك فيها ، ومن أمثلة ذلك : القسم على قضايا التوحيد وإفراد الله بالعبادة كما في قوله : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ ١ ﴿ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴾ ٢ ﴿ فَالْتِّلِيَتِ ذِكْرًا ﴾ ٣ ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ ﴾ الصافات: ١ - ٤ إذن أقسم على ماذا ؟ ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ٤ ﴿ الصافات: ٤ أقسم على التوحيد بإفراد الله بالعبادة وهذا لعظم مكانة هذه القضية .

وقد يقسم على إنزال الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله : ﴿ حَمَّ ﴾ ١ ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ٢ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ الدخان: ١ - ٣ .

وقد يقسم على إثبات المعاد يوم القيامة : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ ٦ الذاريات: ٦ . وقد يقسم إلى تقسيم الناس إلى ناجح مفلح وراسب كما في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ١ إلى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ١ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ ﴾

دَسَّهَا ﴿١٠﴾ الشمس: 1 - 10 ، كما في قوله : ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَقَىٰ ﴿٤﴾﴾ الليل: ٤

وقد يكون على إثبات الرسالة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون على إثبات القدر وأن الأقدار مسجلة مكتوبة ، وقد يكون على إثبات أن الرزق بيد الله يرزق من يشاء كما في قوله : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تطفون ﴿٢٣﴾﴾ الذاريات: ٢٢ - ٢٣ .

وهذا يدل على أن المقسم عليه قد يتقدم على القسم والمقسم به في مواطن كما في هذا الموطن ، وقد يحذف حرف القسم والمقسم به ويبقى المقسم عليه مثل قوله سبحانه : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ يس: ٤٧ في هذه الحال إذا حُذِفَ حرف القسم والمقسم به قد يؤتى بلام القسم للدلالة عليه كما في قوله : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ التكاثر: ٨ ، وقد تحذف أيضا لام القسم كما في قوله : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ يس: ٤٧ .

وهكذا أيضا المقسم عليه قد يحذف في بعض المواطن، وقد مثل له المؤلف بقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ ق: ١ حيث حذف المقسم عليه . ما الغرض من القسم ؟ قال : عظمة المقسم به وأهمية المقسم عليه وتوكيده . إذن لقسم نوع من أنواع توكيد الكلام، والكلام في لغة العرب يتم توكيده بوسائل متعددة منها القسم، ومنها تكرار الكلام مثل ماذا ؟ ﴿فَإِنَّ

مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ الشرح: ٥ - ٦ لماذا كرّر الكلام ؟
للتأكيد.

و قد يكون التأكيد بالإتيان بلفظ آخر مرادف للفظ الأول على الصحيح من كلام العرب. وهكذا أيضا قد يؤكد الكلام بحرف من حروف التوكيد سواء كان من الحروف الداخلة على الجمل الاسمية مثل: <إِنَّ> ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ الذاريات: ٢٣ ، قد يكون من الحروف الداخلة على الأفعال مثل: <لَنْ> على قول . وقد يكون التأكيد بالنون المشددة بعد الأفعال كما في قوله ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَنَّ﴾ التغابن: ٧ ﴿لَتُسْعَلَنَّ﴾ التكاثر: ٨ ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ الأنبياء: ٥٧ .

هذه مجمل أحكام القسم وأسأل الله جل وعلا أن يوفقنا وإياكم لخيري الدنيا والآخرة وأن يجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين ، وبإذن الله عز وجل نتكلم في اللقاء القادم عن القصص القرآني : أحكامه وآدابه وفوائده وعبره ونحو ذلك .

القصص

القصص والقص لغة : تتبع الأثر .

وفي الاصطلاح : الأخبار عن قضية ذات مراحل ، يتبع بعضها بعضا .

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ يوسف: ٣ و ذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى .

أنفع القصص، لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يوسف: ١١١ و ذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب و الأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام :

*- قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

*- وقسم عن أفراد وطوائف ، جرى لهم ما فيه عبرة ، فنقلة الله تعالى عنهم ، كقصة مريم ، ولقمان ، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، وذو القرنين ، وقارون ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، وأصحاب الأخدود وغير ذلك .

*- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ،
كقصة غزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني قريظة ، وبني النضير ،
وزيد بن حارثة ، وأبي لهب ، وغير ذلك .

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها :

1- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ قوله تعالى:

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ

﴿٥﴾ القمر: ٤ - ٥

2- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين ؛ لقوله تعالى عن المكذبين : ﴿ وَمَا

ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴿ هود: ١٠١ .

3- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا لَوْ لَوِطَ بِجَنَّتِهِمْ

بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ يَجْزَى مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ القمر: ٣٤ - ٣٥ .

4- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما أصابه من المكذبين له ؛

لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ فاطر: ٢٥ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ فاطر: ٢٦ .

5- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا

نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله تعالى:

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُثَجِّى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء: ٨٨،

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ

أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ الروم: ٤٧

6- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا

﴿ ١٠ ﴾ محمد: ١٠ .

7- إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فإن أخبار الأمم السابقة لا

يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا

كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ هود: ٤٩

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴿٩﴾ إبراهيم: ٩ .

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة ، مثل قصة لقمان ،

وأصحاب الكهف ، ومنها ما يأتي متكررا حسب ما تدعو إليه الحاجة ،

وتقتضيه المصلحة ، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد ، بل يختلف

في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر .

ومن الحكمة في هذا التكرار ؟

1- بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها .

2- توكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس .

3- مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

4- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقضيه الحال

5- ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدو تناقص.

شرح مبحث : القصص

تنوع أسلوب القرآن في عرض أحكامه ومواعظه ، فكان من ذلك ذكر الأحكام مجردة أمرا ونهيا ، ومن ذلك إقامة الحجج العقلية التي يدعن لها كل عاقل ، وكان من أساليب القرآن في عرض مواعظه أن أتى بأسلوب القصص فيقص علينا ما يتعلق بالأمم السابقة من أجل أن يكون ذلك محصلا لفوائد كثيرة .

وقد ذكر المؤلف أن المراد بالقصص الإخبار أو الأخبار التي تكون عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضا، فالخبر الذي يشتمل على سرد للوقائع التي حصلت في أزمنة مختلفة يسمى قصصا. ولقصص القرآن مزايا لا توجد في غيره :

- أول تلك المزايا: أنه **أصدق القصص**؛ إذ إن هذا القصص القرآني قصه رب العزة والجلال العالم بكل شيء الذي لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ **النساء: ٨٧** أي لا يوجد أحد أصدق من الله. ولاشك أن قصص القرآن ليس فيها شيء من الكذب وليس فيها شيء من الزيادة على الوقائع التي وقعت بخلاف قصص الناس التي يقصونها، وقصص القرآن ليس فيها شيء من مخالفة الواقع.

- والميزة الثانية من [مزايا] قصص القرآن أنه أحسن القصص ؛ لأن الله عزوجل هو الذي قصه وهو سبحانه يتكلم بالكلام البليغ الذي وصل إلى أعلى الدرجات في الكمال ، ومن هنا فهو يستعمل الألفاظ

المناسبة في كل قصة بما يؤدي إلى كمال المعنى ، فيتعمل الألفاظ القوية او الألفاظ اللينة في المواطن التي تناسبها .

- ومن مميزات قصص القرآن ما فيها من الفوائد وما يتخلص

منها من ثمرات تؤثر على حياة الناس وتؤثر على قناعاتهم قال تعالى : ﴿

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يوسف: ١١١ العبرة : العِظَةُ ،

كأنه اعتبر أحوال الماضين بحاله ، فإن العبرة مجاوزة الشيء إلى غيره يقال :

عَبَرَ النهر أي جاوزه ، وكأنه انتقل من مكان إلى مكان ، والقصص فيها

عبرة من جهة أن الإنسان ينتقل من أحوال الماضين على حال نفسه ،

فيقول : إذا كان الماضون على حال مماثل لحالي فسيأتي من النتائج

والتقديرات مثل ما جاءهم ، ولذلك متابعة قصص القرآن يؤدي إلى

إصلاح أحوال الناس . وقوله : ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي لأصحاب العقول .

- ومن مميزات قصص القرآن أنه يربط الوقائع المتماثلة في سرد

قصصي واحد ، فقصص الأنبياء يؤتى بها قصة بعد أخرى من أجل مناسبة

الموضوع الذي يتحدث عنه فيه ، انظر مثلا لسورة هود وكم اشتملت

عليه من قصص الأنبياء السابقين ، انظر إلى سورة الكهف وما اشتملت

عليه من قصص أصحاب الجنة وموسى والخضر وقصة ذي القرنين إلى غير

ذلك من القصص المذكورة في سور القرآن .

وقد قسّم المؤلف القصص القرآن إلى ثلاثة أقسام :

1- الأول : ما يتعلق بالأنبياء والرسل فإن آيات القرآن قد ذكرت بعض

المرسلين كما قال تعالى : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ غافر: ٧٨ وقد ذكر القرآن خمسة وعشرين نبيا منهم نبينا **صلى الله عليه وسلم** ، وأكثر الأنبياء السابقين الذين ذكروا في القرآن ذكر الله عزوجل بعض قصصهم في القرآن .

وقصص الأنبياء السابقين فيه مواعظ وعبر ؛ لأن فيه من الفوائد طريقة الأنبياء عليهم السلام في الدعوة إلى الله صبرا واحتسابا ، وفيها أيضا بيان شيء من الجدال والحجج التي يلقيها الأنبياء وكذلك الشبهات التي يلقيها خصومهم وكيف أجاب عنها الأنبياء عليهم السلام ، مما يستفيد منه الدعاة إلى الله .

كذلك في قصص الأنبياء عليهم السلام ذكر نماذج من صبرهم مما يجعل الدعاة يتأسون بهم في ذلك، ولذلك لما ذكر الله جل وعلا في سورة الأنعام الأنبياء قال: ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: ٨٨ إلى أن قال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَةٌ ﴾ الأنعام: ٩٠ .

2- النوع الثاني من أنواع القصص القرآني : قصص غير الأنبياء من الأمم

السابقة مما كان فيه بعض المواعظ والعبر حيث نقلها الله عزوجل في كتابه العزيز ليستفيد الناس منها .

وفيها فوائد ومواعظ وفيها أيضا تسلية لأهل الإيمان، وقد ذكر المؤلف نماذج من تلك القصص.

3- القسم الثالث الحوادث التي وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

كقصة غزوة بدر ، حيث ذكرها الله عزوجل في سورة الأنفال ، وقصة غزوة أُحُدٍ حيث ذكرها الله عزوجل في سورة آل عمران ، وقصة الأحزاب والخندق حيث ذكرها الله عزوجل في سورة الأحزاب ، وقصة بني قريظة حيث ذكرت في سورة الأحزاب ، وقصة بني النضير حيث ذكرها الله عزوجل في سورة الحشر إلى غير ذلك من القصص . وهذه القصص فيها فوائد عظيمة منها أن ما وقع في عهد النبوة يقع له مثائل في العصور اللاحقة وبالتالي يؤثر في حياتهم التأثير الكبير .

قد يقول قائل: لِمَ لَمْ يُكْتَفَى بما ورد في السنن وكتب الأحاديث من قصص ؟

يقال : إن القصص القرآني لأحوال من في عهد النبي يظهر أشياء لا

يتمكن الرواة من إيرادها وذكرها ، منها قوله عزوجل : ﴿ **مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ **آل عمران: ١٥٢** فهذا لا يمكن للرواة أن يذكروه لأنه من الأمور الباطنة التي لا يطلع عليها إلا رب العزة والجلال . وهكذا أيضا أحوال المنافقين وشؤون أهل النفاق وطرائقهم في عباداتهم هذه لا يتمكن الرواة من نقلها ، ومن هنا ذكرها الله عزوجل في كتابه العظيم .

ثم إن القصص القرآني يسرد الوقائع سردا يستفاد منه ويكون في مواعظ

وعبر لا يمكن أن تكون عند الرواة بمثل ذلك السياق ، ثن إن بلاغة القرآن واختيار الألفاظ المناسبة في كل واقعة يتميز به قصص القرآن عما ذكره الرواة من وقائع حدثت في عهد النبوة .

وإذا تأمل الإنسان ما حصل في عهد النبوة يجد أن جميع الوقائع التي تحدث بعد ذلك لها مماثلات مما وقع في عهد النبوة ، ولذلك فإن دراسة السيرة من خلال دراسة الآيات القرآنية التي تحدثت عن الوقائع التي وقعت في عهد النبوة يستفيد الإنسان منه فوائد كثيرة يغفل عنها كثير من أولئك الذين يدرسون السيرة من خلال الروايات الحديثية المذكورة في كتب الأحاديث .

على أن كثيرا من الناس يكتفون بما ورد في كتب السير مع أن فيها الصحيح وفيها الضعيف بخلاف ما في القرآن فهو متواتر قطعي لا يرد عليه أي احتمال.

ثم ذكر المؤلف عدد من الحكم التي من أجلها ذُكر القصص في كتاب الله عزوجل :

* فأولى تلك الحكم : بيان حكمة الله ؛ فإن الله عزوجل إنما خلق الخلق لحكمة عظيمة ألا وهي عبادته ، وله سنن كونية في العباد ، فعندما نتدارس هذه القصص التي وردت في القرآن نعرف الحكمة العظيمة التي قصدتها الله جل وعلا من خلق الخلق ومن إرسال الرسل ومن إنزال الكتب ومن تقلب أحوال الناس بمقتضى السنن الكونية . ومثل هذا يفيد العباد كثيرا ويجعلهم يسعون إلى تحقيق المقاصد الشرعية من إيراد تلك

القصص .

* الحكمة الثانية : معرفة عدل رب العزة والجلال بإنزال العقوبة على المكذبين ، فإنه جل وعلا قد بين في هذه الآيات أن أولئك المكذبين نزلت بهم العقوبات ، وانظر إلى قصص أنبياء الله حيث أنزل الله العقوبات المتتالية بالمكذبين لهم : قوم نوح أُغرقوا وقم هود أرسلت عليهم الريح وقم صالح أخذتهم الرجفة وقوم لوط قُلبت ديارهم وهكذا ، قوم شعيب أخذتهم الرجفة إلى غير ذلك من قصص إنزال العقوبات بتلك الأمم ، قارون خسف الله به وبداره الأرض ، فرعون أُغرق إلى غير ذلك من قصص هؤلاء المكذبين الذين كذبوا أنبياء الله .

وفيه بيان أن العقوبة التي تكون على المكذبين لا تقتصر على الآخرة ، فإن عقوبة الآخرة لهؤلاء ثابتة وهناك أيضا عقوبة دنيوية لهم لا بد أن تكون عليهم في هذه الدنيا .

* والأمر الثالث من فوائد وحكم إيراد القصص القرآني : بيان فضل رب العزة والجلال بإنزال الخيرات على المؤمنين في الدنيا ، وقد ذكر الله عزوجل من قصص الأنبياء وكيف نجاهم الله وكيف أراد بهم أقوامهم السوء من مثل قصة إبراهيم عليه السلام عندما ألقاه قومه في النار فنجاه الله منها ، ومن مثل قصة نوح عليه السلام حينما كان قومه يهزؤون به و يسخرون فنجاه الله عزوجل من الغرق ، وهكذا أنبياء الله نجاهم الله مما كادهم بهم أعداؤهم ، لوط لما جاء قومه يريدون ضيفه طمس الله على

أعينهم ، وهكذا في قصة النبي صلى الله عليه وسلم عندما مكر به قومه ليثبته أو يخرجوه أو يقتلوه فجاه الله من مكرهم ، وهكذا أيضا ما ذكره الله عزوجل من قصة الأحزاب وكيف كفى الله المؤمنين القتال وقصة بني قريظة وكيف أن أورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم يطؤها ونحو ذلك من القصص الذي جاء في القرآن من مثوبة المؤمنين في الدنيا .

وإن كان الأنبياء عليه السلام قد لا يصل إليهم أو لا يقون حتى تنزل العقوبة بأعدائهم كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْتَايُرْجَعُونَ ﴾ غافر: ٧٧ .

* ثم ذكر المؤلف أيضا من أنواع الحكم التي في ذكر القصص القرآني تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن داعية الحق عندما يدعو الناس إلى الخير والهدى وما يتحقق به صلاحهم وسعادتهم واستقامة أحوالهم ثم يكذبونه ولا يصدقونه قد يبقى في نفس النبي شيء من ذلك كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ فاطر: ٨ ونحو ذلك من النصوص .

فعندما يذكر الله عزوجل الأنبياء السابقين وكيف أنهم قد جاءهم شيء من التكذيب يكون في هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ فاطر: ٢٥ .

* كذلك من حكمة ذكر القصص القرآني ترغيب المؤمنين في الثبات على الأعمال الصالحة والازدياد منها والبقاء على الإيمان ؛ حيث أن النفوس عندما ترى أن المؤمنين نزل بهم شيء من البلاء في الدنيا فقد يكون هذا من أسباب جعل الشياطين تورد الشكوك في قلوب المؤمنين ، فعندما يذكر الله عزوجل أحوال الأمم السابقة وكيف نجى الله أوليائه وكيف عاقب أعدائه يكون في ذلك قطعاً للطريق على الشياطين لئلا تصل إلى القلوب وتوسوس فيها . وقد قال الله جل وعلا: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة: ٢١٤ .

* كذلك في إيراد قصص القرآن فيما يتعلق بالأمم السابقة تحذير أهل المعاصي وأهل الكفر من الاستمرار على حالهم المخالفة للشريعة.

* كذلك في إيراد قصص الأمم السابقة إثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث لم يشاهد حال أولئك الأنبياء ولم يصل إليه خبرهم ولم يطلع على كتب الأنبياء السابقين إذ هو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، فعندما يُخبر بتفاصيل الأنبياء السابقين يكون ذلك من علامات صدق هذا النبي الكريم عليه السلام ، كما فعل عداس في الطائف عندما أخبره النبي

صلى الله عليه وسلم عن يونس لما سأله عن أرضه التي جاء منها فأخبره أنه من ينوى ، فذكر له النبي صلى الله عليه وسلم أنها بلد العبد الصالح يونس فكان ذلك من أسباب تصديقه للنبي صلى الله عليه وسلم .

هنا مسألة تُشكِلُ على كثير من الناس ألا وهي أن قصص القرآن يتكرر ؛ فمثلا قصة آدم وإبليس تكررت في مواطن كثيرة في أول سورة البقرة في أول سورة الأعراف في آخر سورة الإسراء إلى غير ذلك من مواطن ذكرها ، وهكذا مثلا قصة موسى عليه السلام تكررت في مواطن كثيرة عديدة من القرآن ، فقد يقع إشكال من ثلاث جهات :

– الجهة الأولى: لماذا كُرِّرَ هذا القصص ولمَ لم يقتصر على إيراد هذا القصص في مكان واحد ؟

– والسؤال الثاني: أن القصص لقرآني لأحوال هؤلاء الأنبياء يختلف مرة يطيل ومرة ينقص ومرة يأتي بحوادث لم تذكر في الموطن الآخر، فقد يورث ذلك شكا لبعض الناس.

– والأمر الثالث : أن القصص القرآني المتكرر يتكرر باختلاف ألفاظه ؛ فمرة يؤتى بلفظ ومرة يؤتى بلفظ آخر ، من أمثله مثلا يأتي بقصة موسى وفرعون تأتي مرة بلفظ ومرة بلفظ آخر بزيادة أو بنقصان ، أو بتغيير اللفظ .

والجواب عن هذه الإشكالات الثلاثة : أن قصص القرآن يورد في كل موطن بحسب السياق الذي قصده الشارع من إيراد تلك القصص ، فإن

سور القرآن لها مقاصد ومن ثم يُذكر من قصص الأنبياء ما يتناسب مع مقاصد تلك السورة ، مثال ذلك : بعض السور التركيز فيه على دعاء الأنبياء وكيف أجاب الله دعائهم كما في سورة الأنبياء ، في سورة الأنبياء تركيز على أن الأنبياء دعوا الله فاستجاب الله دعائهم ، وأنه من سار على طريقته في الدعاء فإن الله يستجيب دعاؤه ، ولذلك يركز في هذه السورة على هذا الجانب جانب الدعاء وإجابة الله له .

بينما في سور أُخَرٍ كان التركيز على أن الأقوام طلبوا من أقوامهم آيات وعلامات وكيف أن الله عزوجل أعطاهم هذه العلامات والآيات والحوارق فلم ينتفعوا بها .

بينما في سور أُخَرٍ يكون المقصود إيراد كيف أنجى الله المؤمنين من أعدائهم الكافرين، وفي سور أخرى كيف أزل الله العقوبة بالمكذبين فيكون لتركيز على مثل ذلك.

فالمقصود أن كل قصة من قصص القرآن يلاحظ فيها السياق الذي ترد فيه ومقاصد السورة التي وردت فيها تلك القصة. وحينئذ ينتقى من الألفاظ ما يتناسب مع تلك القصة وينتقى من جزئيات قصص الأنبياء ما يتوافق مع مقصود تلك السورة .

وقد ذكر المؤلف عددا من الحِكَم التي من أجلها ورد تكرار القصص في القرآن منها:

أهمية تلك القصص وتثبيت هذه القصص للقلوب ومراعاة أحوال المخاطبين حيث يخاطب كل بما يناسبه من جهة الأسلوب ، وإظهار بلاغة

القرآن ، وظهور صدق القرآن لأن هذه القصص قد جاءت في قصة واحدة بأساليب متنوعة ومع ذلك لم يكن فيها تضاد ولا تناقض .
 مما يتعلق بهذا الجانب أن القصص القرآني يلاحظ فيه الاقتصار على ما ينتفع الناس به ، وأما ما لا ينتفع به فإنه لا يشار إليه ولا ينبه عليه ، ومن أمثلة هذا : في قصة أهل الكهف ما لون كلبهم ؟ ومن أي نوع هذا الكلب ؟ وما حجمه ؟ كل هذه تفاصيل لا يستفيد منها قارئ القرآن ولذلك لم تُذكر ، فالتفاصيل التي يحتاج الناس إليها مذكورة في القرآن ، وأما التفاصيل التي لا حاجة للناس بها فحينئذ لا تذكر في القرآن .

ومن المسائل المتعلقة بهذا : هل يجوز وضع تمثيلات تلفزيونية للقصص الوارد في القرآن ، فيقال هذه تمثيلية مأخوذة من القرآن أو لا ؟
فنقول : لا يجوز ذلك ، وهذا من المحرمات ، لماذا ؟ لعدد من الأسباب :

– أول ذلك أن نقل أساليب القرآن بهذه التمثيلات لا يمكن أن يكون مطابقاً للأسلوب القرآني ، بل لابد فيه من اختلاف ، فإن أساليب القرآن لا يمكن تطبيقها بمثل هذه التمثيلات .

– السبب الثاني : أن هذه التمثيلات لابد أن تذكر الوقائع التي تكون في هذه القصص والجزئيات التي تكون مرافقة للقصص القرآني مما لم يذكر في

القرآن : ماهي ألوان ثيابهم ؟ ما طريقة هذه الثياب ؟ كيف يلبسونها ؟

هذا كله لابد أن يورد في مثل هذه التمثيلات ، وبالتالي مهما فعلوا يكونون قد قالوا على أولئك الأقسام بلا علم فيكون كذبا عليهم وقولا بدون أن يكون مستندا على دليل .

– الأمر الثالث : أن هذه التمثيليات كذب ؛ فهذا يقول أنا عزيز وهو كاذب ، وذاك يقول : أنا ذو القرنين وهو كاذب ، والكذب ممنوع منه في الشريعة .

– الأمر الرابع : أن هؤلاء الممثلين يمثلون تمثيليات متكررة مختلفة ، ومن ثمّ إذا جاء شخص فمثل أهل الخير في تمثيلية سينطبع على أذهاب المشاهدين سواء من الصغار أو من الكبار أن هذا الشخص يمثل الخير ، فإذا جاء في تمثيلية أخرى قد يمثل دور أهل الشر ، فحينئذ يقعون في تناقض ، وقد ينسبون الشر الذي أداه هذا الشخص في التمثيلية الأخيرة للممثل عنه من أهل الخير في التمثيلية الأولى فيكون في ذلك نوع من أنواع الكذب والإخبار بخلاف الواقع ووضع أوهام في رؤوس الناس ليست بصحيحة ولا تمتّ للحق ولا للصدق بصلة .

ومن هنا فالظاهر عدم جواز وضع تمثيليات للقصص القرآني وأن هذا من الكذب على الله جل وعلا ومن الكذب على أصحاب هذه القصص .

قد يقول بعض الناس : في ذلك ربط للناس بالقرآن وبقصص القرآن وهو خير من إشغالهم بتلك التمثيليات الهابطة التي تمثل العهر والخنى وتجعل الناس أهل تصرفات مخالفة للشريعة .

وهذا الكلام ليس بصحيح لأمر :

– أولها: أن هذه التمثيليات ستذكر صفة أهل الباطل وطرائقهم وستحتاج إلى ذكر أنواع اللباس وقد يكون فيه إيراد لصور النساء فيكون ذلك من

أسباب التفرج ومن أسباب رؤية الناس لما لا يحل لهم أن يروه.

– الأمر الثاني : أن في ذلك كذبا وتزييدا وإيهاما لوقائع لم تقع وبالتالي يؤدي ذلك إلى أن ينطبع في أذهانهم ما يخالف الشرع ، ورؤية الناس للمعصية مع اعتقادهم أنها معصية خير من رؤيتهم للكذب والباطل الذي يعتقدون صحته ويعتقدون أنهم ينتفعون به .

– الأمر الآخر : أن الآخر أن الاطلاع على مثل هذه الوقائع قد يجعل الناس يقدمون على شيء من المعاصي باعتبار أنه فعل يف مثل هذه التماثيل ، فتكون تلك التمثيلات سببا أو طريقا لأخذ الأحكام الشرعية وهذا ليس من طرق أخذ الأحكام فإن الأحكام إنما تُأخذ من كتاب وسنة أو بالرجوع إلى علماء الشريعة .

قد يقول قائل: بأننا سنقوم بعرض هذه التماثيل والكتابة التي تنطلق منها على مختصين في الشريعة فينقحونها ويتأكدون من صحتها.

فيقال : وإن تؤكد من صحة ما يريدون تمثيله لكنهم سيحتاجون إلى زيادات ، لأن تطبيق المقروء على الوقائع لا يمكن إلا بوضع زيادات لا يمكن معرفة مطابقتها للواقع .

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى . وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع :

الأولى: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله : ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :
 جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا
 محمد ، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، وسائر الخلائق على
 إصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى
 بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الزمر: ٦٧
 (1)

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل.

(1) أخرجه البخاري ، كتب التفسير ، باب قوله : (وما قدروا الله حق قدره) حديث رقم (4811) ،
 ومسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب صفة القيامة والجنة والنار . حديث رقم (2786) .

اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فتزلت: ﴿

فَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٣ (2)

الثالث : ما لم يقره الإسلام ، ولم ينكره ، فيجب التوقف فيه ، لما رواه البخاري (3) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ العنكبوت: ٤٦ الآية ، ولكن التحدث بهذا النوع جائز ، إذا لم يخش محذور ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " رواه البخاري (4) .

وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذی فائدة في الدين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه.

(2) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) حديث رقم (4528) ، ومسلم ، كتاب النكاح ، باب جواز جماعة امرأته في قبلها ، من قدامها أو من ورائها ، من غير تعرض للدبر . حديث رقم (1435) .

(3) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب 11 : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) ، حديث رقم 4485 .

(4) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب 50 : ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث رقم 3461 .

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين ، فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم ، وقد ضلوا ، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، أو تكذبوا بحق ، وإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني " (5).

وروي عن البخاري (6) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله محضا ، لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله ، وغيروا ، فكتبوا بأيديهم ، قالوا : هو من عند الله ؛ ليشتروا بذلك ثنا قليلا أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ فلا والله رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت موافق العلماء، ولاسيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

(5) أحمد (3/ 338 ، 387).

(6) أخرجه البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها . حديث رقم

(2685) ، (6929) .

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأي أنه بذكر أسانيدها
خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم من أكثر منها ، وجردها من الأسانيد غالبا ، فكان حاطب
ليل مثل البغوي الذي قال شيخ الإسلام ابن تيميه (1) عن تفسيره :
إنه مختصر من الثعلبي ، لكنه خاصته عن الأحاديث الموضوعية والآراء
المتدعة ، وقال عن الثعلبي : إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب
التفسير من صحيح وضعيف وموضوع .

ج- و منهم من ذكر كثيرا منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو
الإنكار مثل ابن كثير.

د- و منهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئا يجعله تفسيرا للقرآن
كمحمد رشيد رضا.

(1) مجموع الفتاوى (13/ 304) .

شرح مبحث: الإسرائيليات

ذكر المؤلف ههنا ما يتعلق بالإسرائيليات وفسرها بأنها الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل سواء كانت في الأحكام أو كانت في القصص ، ويلاحظ أن الفرق بين الإسرائيليات وشرع من قبلنا يظهر من جهتين :

– **الجهة الأولى:** أن شرع من قبلنا يراد به ما ورد في الكتاب والسنة من أخبار الأمم الماضية، وليس المراد به ما نقلوه بخلاف الإسرائيليات فإن المراد به ما ورد من طريق أهل الكتاب.

– **الفرق الثاني:** أن الإسرائيليات خاصة ببني إسرائيل، بينما شرع من قبلنا يشمل جميع القصص والحوادث المذكورة في القرآن عن الأمم السابقة، سواء كانوا من بني إسرائيل أو من يرهم من الأنبياء وغيرهم. و من هنا نفرق بين الإسرائيليات وبين شرع من قبلنا.

ذكر المؤلف أن الإسرائيليات تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

– **النوع الأول ما أقره شرعنا وديننا :** فحينئذ لا نعترض عليه ويكون حقا ، وكونه حقا ليس لأنه من كلام بني إسرائيل وإنما لأن الشارع شهد له ، وذكر له شاهدا حديث ابن مسعود فيما يتعلق بخلق السموات و الأرضين .

– **ثم ذكر أن القسم الثاني ما شهد ديننا الحنيف بأنه كذب،** فهذا باطل ومردود ولا يقبل.

– **وذكر أن القسم الثالث ما سكت عنه الشرع :** فإنه حينئذ لا نكذبه ولا نصدقه ، ولا بأس أن يتحدث الإنسان به لقوله : **[وحدثوا عن بني**

إسرائيل ولا حرج] (56).

وذكر المؤلف أن سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين هذا ممنوع منه في الشرع، واستدل له بحديث جابر مرفوعا وبحديث ابن عباس موقوفا عليه عند البخاري.

يبقى عندنا الكلام عن تفسير القرآن بهذه الإسرائيليات وهو مدار البحث الذي ينبغي بنا أن نهتم به وأن نركز عليه.

هل يصح لنا أن نفسر القرآن بالإسرائيليات أو لا يصح هذا ؟

ونقول: إذا نظر الإنسان في الإسرائيليات التي أوردت في تفاسير القرآن نجد أنها على أنواع:

– النوع الأول : إسرائيلييات تخالف نص القرآن فسر القرآن بها

، وحينئذ نقول هذه الإسرائيليات لا تجوز روايتها ولا يصح الاعتماد

عليها ، ومن أمثلة ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسِرَّ ﴾

الأنعام: ٧٤ فإن هذه الآية نصت على أن والد إبراهيم هو آزر ، فعندما نأتي

بإسرائيليات تخالف هذه الآية وتجعل والد إبراهيم شخصا آخر فحينئذ

نقول هذه الإسرائيليات مردودة لأنها مخالفة للقرآن ولا يجوز التعويل عليها

.

(56) – أخرجه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل – حديث: 3292 .

- النوع الثاني : إسرائيليات تخالف تفسيراً للنبي صلى الله عليه وسلم
 وآيات القرآن ، فحينئذ إذا صح الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم
 فإننا نلغي ما قابله من هذه الإسرائيلييات ونعتقد أنها باطلة ولا يجوز
 الاستناد عليها ؛ لأنه يجب علينا أن نصدق النبي صلى الله عليه وسلم وأن
 نقدم أقواله في تفسير القرآن على أقوال غيره قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ النحل: ٤٤ فتفسير القرآن الوارد عن النبي
 صلى الله عليه وسلم هو التفسير المقبول لأنه هذا هو وظيفة النبي صلى
 الله عليه وسلم .

- النوع الثالث من أنواع تفسير القرآن بالإسرائيليات :

إسرائيليات لا تخالف نص القرآن وإنما تخالف ظاهره ، تخالف ظاهر
 القرآن فهذه الإسرائيلييات غير مقبولة ولا يصح التعويل عليها ؛ لأن الله
 عزوجل قد أخبر أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، ومن مقتضى ذلك أن
 يفسر القرآن بحسب طريقة العرب في تفسير كلامهم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
 عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الزخرف: ٣ ومن هنا إذا أردنا تفسير القرآن
 فإننا نرجع إلى لغة العرب ، ومن مقتضى لغة العرب أن اللفظ الظاهر
 يحمل على المعنى الظاهر الراجح دون المعنى المرجوح ، فإذا جاءت آثار
 إسرائيلية وفسر القرآن بها على أن المراد بالقرآن خلاف ظاهره قيل هذه
 الإسرائيلييات مردودة غير مقبولة ، ومن أمثله مثلاً : في تفسير قصة
 سليمان عليه السلام إسرائيليات كثيرة وهذه الإسرائيلييات تخالف ظاهر
 القرآن ، ومن هذا مثلاً قوله عزوجل : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ

الشَّيْطَانِ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ

هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴿البقرة: ١٠٢﴾ فهذه الآية لها ظاهر نفسرها بمقتضى ظاهرها

، فالإسرائيليات التي فُشِّرَتْ بها هذه الآية مما يخالف ظاهر الآية نقول هي مردودة غير مقبولة لأن رب العزة والجلال قد خاطب العرب بلغتهم ومن مقتضى لغة العرب أن يفسر اللفظ الظاهر بمعناه الراجح ، ولا يصح لنا أن نترك المعنى الراجح من أجل هذه الإسرائيليات .

– النوع الآخر من تفسير القرآن بالإسرائيليات : أن يكون

هناك أمر مسكوت عليه في القرآن مما يتعلق بشيء من حوادث الأمم الماضية ، فتأتي الإسرائيليات وتوضح هذا المسكوت عنه ، وقد أشار المؤلف إلى شيء منها مثلاً : لون كلب أصحاب الكهف ، فهذا ورد في

الإسرائيليات ، والآية القرآنية : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَكِيسٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الكهف:

١٨ ليس فيه إشارة إلى اللون ، فالإسرائيليات هنا ليس فيها ما يعارض نص القرآن ولا ظاهره ، وإنما فيها معنى آخر غير ما ذُكِرَ في القرآن .

فهل يصح تفسير الآيات القرآنية بهذه الإسرائيليات أو لا يصح ذلك ؟

هذه المسألة مما وقع الاختلاف فيه على أربعة مناهج ذكرها المؤلف:

* الأول : ذكر هذه الإسرائيليات مجرد ذكر بدون أن تكون تفسيراً

للقرآن مع ذكر أسانيدها لتبرأ العهدة منها ، ومثل المؤلف لذلك بطريقة

ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى .

* والطريقة الثانية : تفسير الآيات القرآنية بما بدون النظر إلى أسانيدھا ، ومن سار على هذه الطريقة استدل بحديث : [حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج] واستدل بأن هذه الإسرائيليات فيها توضيح المراد بالآيات القرآنية ومن ثمَّ فإننا نقبلها لأنها توضح مراد رب العزة والجلال بكتابه .

* و المنهج الثالث النظر في هذه الإسرائيليات من جهة قبولها ورفضها بحيث ننظر في أسانيدھا ، ننظر في مقارنتها بالنصوص الأخرى، ننظر في قبول من نُسبت إليه من جهة مناسبة تلك القصص للأنبياء أو الصالحين الذين نُسبت إليهم ونحو ذلك.

* والقول الرابع بأنه لا يجوز تفسير القرآن بهذه الإسرائيليات ، وهذا القول هو الراجح وهو المتعين وذلك لعدد من الأدلة:

1- الدليل الأول : أن كل ما نحتاج إليه مما يتعلق بما ذُكر في القرآن فإنه مذكور في القرآن ، وما لم يذكر فإننا لا نحتاج إليه ، ومن ثمَّ فما لا نحتاج إليه لا يصح أن نفسر القرآن به ، ويترتب على ذلك أنه عند تفسير القرآن بهذه الإسرائيليات نلقت الأذهان عما يُحتاج إليه ويُحتاج إلى معرفته إلى ما لا يحتاج إلى معرفته .

2- الوجه الثاني من أوجه القول بتحريم تفسير القرآن بهذه

الإسرائيليات : أن هذه الإسرائيليات لا تعرف أسانيدھا ولا تعرف مكانتها من جهة الصحة وعدمها ، وما كان كذلك فإنه لا يصح أن نفسر القرآن به ؛ إذ كيف نفسر الدليل القطعي الذي لا يتطرق إليه الباطل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بهذه الإسرائيليات التي

لا نعرف صدقها من كذبها .

3- الوجه الثالث : أن قول النبي صلى الله عليه وسلم : [حدثوا عن

بني إسرائيل ولا حرج] لا يدخل فيما نحن فيه ، فلم يقل فسروا القرآن بما ورد عن بني إسرائيل ، تفسير القرآن بما ورد عن بني إسرائيل أمر مغاير للتحديث عن عنهم وبينهما فرق .

4- الأمر الرابع : أن هذه الإسرائيليات التي فسرت بها الآيات القرآنية

ترتب عليها أقوال شنيعة وروايات باطلة ، كم من نبي اتهم في عرضه ، اتهم في سيرته بسبب هذه الإسرائيليات مع الدعاية أن القرآن يفسر بها ، وانظر إلى قصة داود في سورة ص عندما أورد في تفسير هذه الآيات إسرائيليات تتهم هذا النبي الكريم بما هو براءٌ منه لا يليق أن يُفسر القرآن بها ، وظاهر القرآن أن داود عليه السلام أتاه خصمان فحكم لأحدهما قبل أن يسمع من الآخر فعاتبه الله جل وعلا: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا** **الْمِحْرَابَ** ﴿٢١﴾ **ص: ٢١** فعاتبه الله لأنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر ، فليس فيه إشارة إلى اتهام هذا النبي الكريم بأنه كان يقصد زوجة أحد أتباعه كما ورد في بعض هذه الإسرائيليات .

فهذه الأدلة تدل على تحريم تفسير القرآن بهذه الإسرائيليات وأنه لا يجوز أن نحمل الآيات القرآنية عليها .

هذا ما يتعلق بتفسير القرآن بالإسرائيليات ، وليلاحظ أمر وهو أن الإسرائيليات منها ما نقل عن الصحابة والتابعين أنهم حدثوا به ، فمثل

هذا أقرب من الإسرائيليات التي ذكرت عنهم بعد هذا ، فما ذكره أهل القرون المتأخرة عن بني إسرائيل فليس له من القبول مثل ما لتلك الإسرائيليات .

5- و الشريعة... هذا فيه إشارة إلى دليل آخر من أدلة تحريم تفسير

القرآن بالإسرائيليات: ألا وهو أن هذه الإسرائيليات لا يعلم أنها صدق أم كذب فعندما نفسر القرآن بها فإننا حينئذ نجعلها صدقا وحق لأن القرآن حق وتفسيره حق ، ويترتب على ذلك أيضا أن يكون هناك تناقض وتعارض بين هذه الإسرائيليات لأنها متعارضة ، فعندما نفسر القرآن بهذه الروايات الإسرائيليات المتعارضة نجعل القرآن متعارضا متناقضا وهذا

يخالف قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)

النساء: ٨٢ .

الضمير

الضمير لغة: من الضمور وهو الهزال لقلة حروفه أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

و في الاصطلاح: ما كني به عن الظاهر اختصارا وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتهما.

فالدال على الحضور نوعان :

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: ﴿ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ غافر: ٤٤ .

الثاني: ما وضع للمخاطب مثل: ﴿ صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ الفاتحة: ٧ .

و هذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلاله الحضور عنه. والدال على الغائب ، ما وضع للغائب . ولا بد له من مرجع يعود عليه .

والأصل في المرجع أن يكون سابقا على الضمير لفظا ورتبه مطابقا له

لفظا ومعنى مثل ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ هود: ٤٥ .

وقد يكون مفهوما من مادة الفعل السابق مثل: ﴿ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَى ﴾ المائدة: ٨ .

وقد يسبق لفظا لا رتبة مثل: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ البقرة: ١٢٤ ، وقد يسبق رتبة لا لفظا مثل : (حمل كتابه الطالب) .

وقد يكون مفهوما من السياق مثل: ﴿ وَلَا بُوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وُلْدٌ ﴾ النساء: ١١ فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله : (مما ترك) .

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ ١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً ﴿ المؤمنون: ١٢ - ١٣ فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ ، لأن المجمعول نطفة ليس الإنسان الأول .

وإذا كان المرجع صالحا للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما مثل: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ ﴿١١﴾ الطلاق: ١١

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ﴿٥﴾ ذُو مِرْوَةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ النجم: ٥ - ١٠ فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل .

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه مثال أول: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الإسراء: ٢ .

ومثال الثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ النحل: ١٨ .

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه .

الإظهار في موقع الإضمار

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أبين للمعنى وأخصب للفظ ، ولهذا ناب الضمير بقوله تعالى (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) عن عشرين كلمة المذكورة قبله ، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى (الإظهار في موضع الإضمار) . وله فوائد كثيرة ، تظهر بحسب السياق منها :

الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر .

بيان علة الحكم .

عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ البقرة: ٩٨ ولم يقل فإن الله عدو له ، فأد هذا الإظهار :

الحكم بالكفر على من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل و ميكائيل .

إن الله عدو لهم بكفرهم .

أن كل كافر الله عدو له.

مثل آخر: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿١٧٠﴾ الأعراف: ١٧٠ ولم يقل أنا لا نضيع أجرهم ، ثلاثة أمور :

الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب . و يقيمون الصلاة .

إن الله أجرهم لإصلاحهم .

أن كل مصلح وله أجر غير مضاع عند الله تعالى .

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح المسلمين ولاة أمورهم وبطانة

ولاية أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأوهم أن يكون المراد بطانة المسلمين.

ضمير الفصل

ضمير الفصل : حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كان معرفتين

ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ طه: ١٤ ، وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ الصافات: ١٦٥ وضمير المخاطب كقوله تعالى ﴿ كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ المائدة: ١١٧ وضمير الغائب كقوله تعالى : وأولئك هم المفلحون وله ثلاثة فوائد :

الأولى : التوكيد ، فإن قولك : زيد هو أخوك أوكد من قولك : زيد أخوك .

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله لما بعده، فإن قولك اجتهد هو الناجح يفيد اختصاص الاجتهاد بالنجاح.

ثالثا : الفصل :أي التمييز بين كونه ما بعده خبرا ، أو تابعا ، فإن قولك : زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد ، والخبر منتظر ، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرا ، وإذا قلت : زيد هو الفاضل ، تعين أن تكون الفاضل خبرا ، لوجود ضمير الفصل .

الالتفات

الالتفات : تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر ، وله صور منها :

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ ﴾ الفاتحة: ٢ -

• فحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله : إياك .

الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ

وَجَرَيْنَ بِهِمُ ﴿٢٢﴾ يونس: ٢٢ فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة بقوله
وجرينا بهم .

الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ

مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴿١٢﴾ المائدة: ١٢ فحول
الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله وعينا .

الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ

﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ الكوثر: ١ - ٢ فحول الكلام من التكلم إلى
الغيبة بقوله : لربك .

للالتهفات فوائد منها :

حمل المخاطب على الانتباه لتغيير وجه الأسلوب عليه .

حملة على التفكير في المعنى ، لأن تغيير وجه الأسلوب ، يؤدي إلى التفكير في السبب .

دفع السامة والملل عنه ، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد ، يؤدي إلى الملل غالبا .

وهذه الفوائد عامة للالتفاتات في جميع صوره أم الفوائد الخاصة فتتبع في كل صورة ، حسب ما يقتضيه المقام .

والله أعلم . وصلي الله و سلم على بينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

تم لله الحمد رب العالمين .

شرح مبحث: الضمير

هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي تجعل الإنسان يفهم الآيات القرآنية ؛ وذلك لأن الضمائر واختلاف الأساليب في القرآن له حكم وأسباب ، ومن فهمها فهم مراد الله بهذه الآيات ، وأضرب لذلك مثلا : أول آية في

القرآن في سورة البقرة : ﴿ **الذَّٰرِئَاتُ** ١ **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ البقرة: ١

٢ - فاستعمل هنا ذلك وهو ضمير واسم إشارة لغائب ، مع أن القرآن

بين يديك ، فلم لم يقل هذا الكتاب لا ريب فيه ؟

هنا حكمة ومعانٍ إذا تأملها الإنسان وجد أن الأولى أن يستعمل لفظ

ذلك.

فمعرفة هذه الضمائر وعود كل منها يستفيد الإنسان مه في فهم الآيات

القرآنية ومعرفة الحكمة التي قصدتها الشارع من استعمال أنواع هذه

الضمائر .

قسم المؤلف الضمائر إلى ضمائر حضور وضمائر غياب ، وقبل هذا هناك

النحاة يقسمونها بتقسيمات أخرى فهناك : ضمائر مستترة وهي التي

يكون في اللفظ دلالة عليها بدون أن يكون هناك حروف دالة عليها ،

بينما هناك ضمائر ظاهرة ومن أمثلته في قوله تعالى : ﴿ **وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى**

اللَّهِ ﴾ غافر: ٤٤ فإن فاعل أفوض ضمير مستتر تقديره أنا ، وقوله : ﴿

أَمْرِي ﴾ الياء هنا ضمير ظاهرا في محل جر بالإضافة .

كما أن النحاة يقسمون الضمائر إلى ضمائر رفع وهي التي تعرب في محل

رفع مثل أنا ونحن وإنا.

وهناك ضمائر خفض مثل الهاء والكاف والياء .
وهناك ضمائر تصلح للوجوه الثلاثة مثل : ضمير <نا> فقد تكون مرفوعة في محل رفع وقد تكون في محل خفض تقول : ذهبنا في محل رفع ، وتقول : كتابنا في محل خفض بالإضافة .
ذكر المؤلف هنا ما يتعلق بتقسيم الضمائر إلى ضمائر حضور، فحينئذ لا نحتاج فيها إلى تقدير لأنها معلومة.
وهناك ضمائر غيبة فنحتاج فيها إلى تقدير وبيان مرجع الضمير، بيان المرجع الذي يعود إليه الضمير.

وقد يكون هذا المرجع اسم يدل عليه من مثل ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ هود: ٤٥ الهاء هنا تعود على نوح . وقد يكون مفهوما من مادة الفعل السابق فقوله : ﴿ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ المائدة: ٨ تقدير الكلام اعدلوا فالعدل أقرب للتقوى ، وقد يكون المرجع متقدما في اللفظ كما في قوله : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ البقرة: ١٢٤ فإن الهاء تعود على إبراهيم ، إبراهيم مفعول به والأصل أن المفعول به يؤخر ولذلك قيل هذا اللفظ سبق لفظا لكنه لم يسبق رتبة ، لأن رتبة المفعول به أن يتأخر عن الفاعل .
وقد يكون بالعكس كما لو قلت : حمل كتابه الطالب . وقد يكون مرجع الضمير غير مذكور كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ فاطر: ٤٥ هنا الهاء في قوله ﴿ ظَهْرِهَا ﴾ لم يذكر ما يعود إليه لكنه مفهوم من السياق وهو الأرض ، فهنا لم يذكر مرجع الضمير لكنه يفهم من السياق .

وقد يكون الضمير مطابقا للاسم المذكور الذي يرجع إليه وقد يكون غير مطابق ، وقد مثل له المؤلف بمثال : قد تكون الضمائر هناك ضمائر جمع وضمائر أفراد ، ومن أمثلة ذلك قوله جل و علا : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ ضمير أفراد ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة: ١١٢ فهنا ضمير جمع ، لهذا علة وغاية ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ يعني أنه لا يأخذ الآخرون من أجره شيئا بل أجره يعطى كاملا يوم القيامة ، ثم قال: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لأنه يشترك مع الآخرين في هذا المعنى بحيث يأنس بهم ويرتفع الخوف والشعور بالوحدة حينئذ ، ولذا استعمل في الأول ضمير الأفراد وفي الآخر ضمير الجمع .

قال : الأصل إتحاد مرجع الضمائر ، إذا وُجدت ضمائر متعددة فالأصل أن يكون الجميع عائدا إلى شيء واحد وقد يكون هناك ضمائر مختلفة تعود إلى معنى مختلف من أمثلة ذلك في بعض الآيات ذكر الله عز وجل أو قرن بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر ضمائر تعود إلى الله جل وعلا وضمائر تعود [للنبي صلى الله عليه وسلم] ﴿ وَتَعَزَّوْهُ ﴾ الفتح: ٩

أيش ثم قال : ﴿ وَسَبِّحُوهُ ﴾ الفتح: ٩ التسييح لله و التعزير أي التأييد والنصرة للنبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك قال المؤلف الأصل أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ؛ يعني أن الضمير إذا كان بعد أسماء فالأصل أنه يعود إلى أقرب هذه المذكورات ، هكذا قرر المؤلف وعليه كثير من المؤلفين يقررون هذا المعنى ، وجمهور

الأصوليين على خلاف ذلك يقولون : الصواب أن الضمير يعود إلى من كان سياق الكلام متجها إليه بحيث إذا كانت الجملة أو الجمل السابقة تعود إلى اسم واحد ويقصد بها اسم معين فحينئذ الضمائر الموجودة في هذا السياق كلها ترجع لمن كان مقصودا بالكلام .

ومن أمثله مثلا لما ذكر الله جل و علا عن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿

﴿ **فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي** ﴾ العنكبوت: ٢٦ من الذي قال ؟

نقول : الكلام كله في إبراهيم فقلوه : ﴿ **وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي** ﴾ العنكبوت:

٢٦ يعود إلى من سيق الكلام للحديث عنه وهو إبراهيم ليه السلام وليس عائدا إلى أقرب مذكور .

وقد يأتي على خلاف هذا المعنى في بعض المواطن لمعنى .

هناك مرات عديدة يكون الأصل أن يأتي بضمير يكفي عن الاسم الظاهر لتقدمه ، لكنه يترك الضمير ويؤتى باسم ظاهر من أ جل فائدة ومعنى ،

ومن أمثلة ذلك قوله عز وجل: ﴿ **وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ**

﴿ **فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾ المؤمنون: ١١٧ فلم يقل إنه

لا يفلح وسكت وإنما قال : ﴿ **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾ المؤمنون: ١١٧

للدلالة على أن من دعا غير الله فهو كافر ، من دعا غير الله فهو كافر

بدلالة هذه الآية ، لبيان العلة التي من أجلها يحكم عليه بالكفر وهو أنه

دعا أحدا من دون الله عز وجل . ومن هنا نعرف أن المعنى في هذا أن كل

من دعا غير الله فإنه لا يفلح وأنه من الكافرين .

ومثل له المؤلف بقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ**

﴿ ما قال أجرهم وإنما قال : ﴿ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٧٠) الأعراف: ١٧٠ لبيان أن من تمسك بالكتاب فهو من المصلحين ومن ترك كتاب الله فليس من المصلحين بل هو من المفسدين ، وفيها دلالة على أن كل مصلح حقيقي عمل بالكتاب وتمسك به فإنه مأجور عند الله عزوجل لبيان أن كثيرا ممن يدعو إلى نبذ الكتاب إنما يدعو لذلك لأنه مستأجر من قِبَل بعض الآدميين فكأنه يذكره بالأجر العظيم الذي يناله عند الله عزوجل متى كان من المصلحين الذين يدعون إلى التمسك بالكتاب .

ثم تكلم المؤلف عن ضمير الفصل ، وضمير الفصل ضمير يؤتى به بين اسمين بين مبتدأ وخبر معرفتين من أجل أن يؤكد الكلام ويحصر ما قبله فيما بعده ويكون كذلك مبينا أن الكلام قد تمَّ وأنه لا يحتاج إلى زيادة .
ومثّل له بقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ (١٦٥) الصفات: ١٦٥ فإنه يمكن أن يتم الكلام بقوله : وإنا الصافون لكن أتى بضمير فصل نحن من أجل توكيد الكلام وحصر من يَصُفُّ يوم القيامة بأنهم الملائكة ، ثم بعد ذلك لبيان أن الكلام قد تمّن وأنه لا يحتاج إلى زيادة .

ثم ذكر المؤلف ما يتعلق بالالتفات ن الغيبة إلى الخطاب ، فمرة يأتيك الكلام يتحدث عن أو يخاطب أناسا ثم بعد ذلك يذكرهم على جهة الغيبة فيخاطبهم أولا ثم بعد ذلك يحكم عليهم على أنهم غائبون ، وفي ذلك دلالات منها :

- تحقير هؤلاء.

- ومنها جعل من يستمع لهذا الأسلوب يستشعر حال أولئك المتكلمين
 عنهم من مثل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ﴾ خطاب ثم قال: ﴿ وَجَرَيْنَ
 بِهِم ﴾ يونس: ٢٢ كأنهم أصبحوا غائبين ، في الآية الأولى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴾ الفاتحة: ٢ كأنه الآن غائب خطاب يتكلم عن غائب ، ثم
 قال : ﴿ يَا كَنْعَبُدُ ﴾ الفاتحة: ٥ هذا خطاب لحاضر .
 من أمثله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ من الذي أخذ ؟
 الله ، كأنه يخبر عن غائب ، ﴿ أَخَذَ اللَّهُ ﴾ ثم قال : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ
 عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ المائدة: ١٢ تكلم كأنه يتكلم عن نفسه .
 ومثله : إنا هذا أسلوب تكلم ، ثم قال : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾
 فَصَلِّ ﴿ إيش ؟ ﴾ ﴿ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴾ الكوثر: ٢ التفات إلى أسلوب
 الغيبة .

وفي هذا جعل المخاطب ينتبه ويتفكر في الحال مرة يكون مخاطبا ومرة
 غائبا ، وبالتالي تكون نفسه دائما حاضرة في فهم هذه الآيات القرآنية ،
 وهناك أيضا فوائد خاصة لكل أسلوب من هذه الأساليب ، وهناك صور
 أخرى غير ما ذكره المؤلف ، وما ذكره المؤلف مجرد أمثلة في هذا الباب .

وبهذا نكون قد أتمنا هذه الرسالة المباركة كتاب أصول في التفسير للشيخ
 العلامة محمد بن صالح بن عثيمين ، وهناك مواضيع وأبواب لم يذكرها
 المؤلف هنا لأنه أراد أن تكون هذه بمثابة مقدمة لهذا العلم ولذلك قال :

أصول في التفسير و لم يقل أصول التفسير ..

وهناك كتب كثير قد ألفها أهل العلم في هذا الباب يتمكن الإنسان من دراستها وقد كتب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم كتابا سماه مقدمة في التفسير وهو كتاب جيد وقد منّ الله عزوجل علينا وهياً لنا أن شرحت هذا الكتاب ، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا مقدمة في التفسير اعتنى بها كثير من الأئمة وألفوا لها شروحا ، كما هناك عديد من الكتب في قواعد التفسير ، وما ذُكِرَ بمثابة المقدمة لغيره من الكتب والقواعد في هذا الباب .

وأسأل الله جل وعلا أن يرزقني وإياكم فهم كتابه والعمل بما فيه ، كما أسأله سبحانه أن يجعل لدينا ملكة في فهم القرآن ومعرفة أحكامه وتدبر معانيه ، وأسأله جل وعلا أن يعيد الأمة إلى كتابه عودا حميدا ، هذا والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
في أمان الله يا إخواني الله يستر عليكم. (57)

(57) - ثم الانتهاء من التفريغ بعد صلاة الجمعة من يوم 24 من شهر شوال لعام 1432 للهجرة النبوية بمدينة مكناس المغربية حرسها الله من كل ضر وبأس وسائر بلاد المسلمين .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتبه أبو عبد الأعلى حاتم فتح الله المغربي السلفي.

ولكل مسلم حق الانتفاع به شخصيا، ومن أراد غير ذلك فليتصل بالمؤلف ، وليخبرني بعد ذلك .

Hatim_alatary@hotmail.com

0021214916466